

الإلحاد بين قصورين

حقيقة الإلحاد بين القصور الأخلاقي والقصور المعرفي

ترجمة مناظرة ويليام لان كريغ وسام هاريس ، ومقابلة مع ألفن بلانتنجا يليها ثلاثة ملاحق لنقد البناء الإلحادي

ترجمة وتعليق

د. مؤمن الحسن ، د. عبدالله الشهري

الطبعة الثانية

الإلحاد بين قصورين..!

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بلانتنجا، الفن

ترجمة الإلحاد بين قصورين - يشمل مناظرة أصل الأخلاق بين: وليام لان كريغ.. سام هريس - يليها مقابلة مع الفن بلانتنجا. / الفن بلانتنجا أ. عبد الله سعيد علي الشهري - الرياض، ١٤٣٧هـ

١٣٠ص، ١٤×٢١سم

ردمك: ٧-٠٧٧٨-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

١- الإسلام - دفع مطاعن ٢- الإلحاد والملحدون ٣- العقل (فلسفة) أ. الشهري، عبد الله سعيد علي (مترجم) ب. العنوان

ديوي ٢٤٩ رقم الإيداع ١٤٣٧/٤٠٠٢

الطبعة الثانية

١٤٣٧هـ



Dalailcentre@gmail.com

الرياض - المملكة العربية السعودية

ص ب: ٩٩٧٧٤ الرمز البريدي ١١٦٢٥

Dalailcentre@

+٩٦٦٥٣٩١٥٠٣٤٠

طبعت في الدار العربية للطباعة والنشر

تصدير:

لا شك أن الترجمة هي من أوسع أبواب الاستزادة المعرفية والعلمية وتبادل الخبرات بين البلدان والأمم والثقافات والشعوب، ومن هنا كان لسلسلة (الترجمات) لدىٰ مركز دلائل عناية خاصة في انتقاء أفضلها وأكثرها ملاءمةً لتوجهاتنا واهتماماتنا، إذ معلوم اصطباغ كل عملٍ أو كتابٍ بمذهب أو فكر أو دين أو مجتمع صاحبه، فنقوم بإبراز ما فيه من فوائد، والتعليق علىٰ مالا يناسبنا منه، مع الوضع في الاعتبار عدم تبني المركز لكل مكتوب أو منقول بالضرورة.

وفي هذا الكتاب سنعرض معًا جانبًا قويًا لنقد الأطروحات الإلحادية التي حاولوا الدفع بها كبديل عن الدين، إما في قصورها الأخلاقي (وكما سنرىٰ في مناظرة أصل الأخلاق بين ويليام لان كريغ وسام هاريس) وإما في قصورها المعرفي (وكما ستوضحه المقابلة الفكرية والفلسفية لغاري جتنغ مع ألفن بلانتنجا، وما يليها من ثلاثة ملاحق لنقد البناء الإلحادي)، مفسحين بذلك المجال لتعليقات د. عبد الله الشهري لإبراز الموقف الإسلامي في مقابل كل من نقاط الضعف النصرانية أو التهربات الإلحادية، والتي تضيف إلىٰ الترجمة أبعاداً أكثر عمقًا وفائدة للقارئ.

مركز دلائل

* * *



المحتويات:

المحتوى	الصفحة

* * *

بين يدي الكتاب:

من مواطن الضعف القاتلة في الرؤية الإلحادية هو إشكال القصور، وذلك سواء على المستوىٰ الوصفي descriptive أو التفسيري explanatory، ولكن عن أي قصور نتحدث حتىٰ نجلّي الأمر، لاسيما وأن هناك مَن يعتقد اكتفاء المذهب الطبيعي ذاتياً naturalism؟ والجواب: هو القصور المعرفي، أو شعور العقل الاضطراري بالقدرة علىٰ تجاوز كفاية المذهب الطبيعي بين فينة وأخرىٰ. حيث من المعلوم أن العقل في تكامل أبعاده وتنوع مطالبه هو أوسع وأثرىٰ وأعمق من أن يكتفي بدلالات الظواهر المحسوسة[1]، لقد حرصنا في هذا الكتاب علىٰ انتقاء مثالين جليين علىٰ قصور الرؤية الإلحادية المؤسسة علىٰ المذهب الطبيعي. أحدهما مثال علىٰ القصور الأخلاقي، والآخر مثال علىٰ القصور المعرفي، وإن كان هناك مسار التقاء وتقاطع بين القصورين.

---

(١) يُنظر رسالة «مبحث في العقل»، من كتاب «ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان»، دار نماء، للوقوف علىٰ معالجة توخّت نقد التصور المغلوط للعقل ورصد تداعياته.

أطروحة القصور الأخلاقي هي محور المناظرة بين فيلسوف اللاهوت ويليام لان كريغ William Lane Craig، ودكتور الأعصاب الملحد سام هاريس Sam Harris، حيث سيرىٰ القارئ المنصف مدىٰ هشاشة المنظومة الأخلاقية الإلحادية، علىٰ التنزل بأنه مُؤسَسٌ علىٰ منظومة ذاتُ بال أصلاً. بل أزعم أن هذه المناظرة قد خرجت عن غرضها الأساسي في كثير من المواضع لتكشف عن كمية المراوغة التي يضطر إليها الملحد أمام الإلزامات الإيمانية واللوازم الإلحادية.

وأما أطروحة قصور المذهب الطبيعي معرفياً فهي محور المقابلة التي أجراها غاري جتنغ Gary Gutting أستاذ الفلسفة بجامعة نوتردام، مع فيلسوف اللاهوت ألفن بلانتنجا Alvin Plantinga. حيث في هذه المقابلة يوجز بلانتنجا فكرته المعروفة عن تهافت المقولة الأساسية للمذهب الطبيعي، وذلك بسوقها إلىٰ النهاية المنطقية الوحيدة التي تنتهي إليها، ألا وهي عودة المقولة علىٰ نفسها بالإبطال[1]. وصورة الاحتجاج الإجمالي في أنه إذا كان المذهب الطبيعي صحيحاً فإن الإلحاد نفسه غير صحيح؛ أما صورته التفصيلية فمتروكة للقارئ ليُعمل ذهنه فيها، وهي حُجة جديرة بالتأمل. وأود أن ألفت انتباه القارئ إلىٰ أنني ألحقت بكل من المناظرة والمقابلة فقرتين أساسيتين من كتابي آنف الذكر، رأيتُ صلتهما الظاهرة بفكرتين جوهريتين فيهما.

---

(1) Self-refuting أو Self-defeating.

ولعلّي أشير قبل الختام إلىٰ أن أصل فكرة القصور هذه منصوص عليه في القرآن لمَن تدبَّر؛ وهما في قول الحق تبارك وتعالىٰ: ﴿ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (يونس: ٣٥)، ووجه الاستدلال هو أن الحاجة المعرفيّة قاضيةٌ بأن كل ما سوىٰ الخالق قاصرٌ ناقصٌ تابعٌ لا يمكن أن يستقل بذاته فضلاً عن أن يستقل بهداية غيره. يقول الطاهر بن عاشور عند تلك الآية: «وهذا مما لا ينبغي أن يختلف فيه أهل العقول بأن الذي يهدي إلىٰ الحق يوصل إلىٰ الكمال الروحاني وهو الكمال الباقي إلىٰ الأبد، وهو الكون المصون عن الفساد، فإن خلق الأجساد مقصود لأجل الأرواح، والأرواح مُراد منها الاهتداء، فالمقصود الأعلىٰ هو الهداية. وإذ قد كانت العقول عُرضة للاضطراب والخطأ احتاجت النفوس إلىٰ هدي يُتلقىٰ من الجانب المعصوم عن الخطأ وهو جانب الله تعالىٰ»[1].

جزىٰ الله مركز دلائل علىٰ عنايته بهذا الموضوع خيراً، وعلىٰ حرصه علىٰ إثراء المكتبة العربية الإسلامية بما يفيد في هذا الملف، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

د. عبدالله بن سعيد الشهري

***

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ١٦٢).

المناظرة...

تمت في ٧ إبريل ٢٠١١م بجامعة نوتردام تحت عنوان: «هل الخير مصدره الله؟».. Is Good From God، أو: «هل أصل الأخلاق طبيعي أم فوق الطبيعي؟».. Is the foundation of Morality natural or supernatural

ترجمة:

د. مؤمن الحسن

تعليق:

د. عبد الله الشهري (ش)

الأرقام بين علامتي (...) هي للحواشي السفلية والتعليقات في كل صفحة، وأما الأرقام بين علامتي [...] فهي للملحوظات الموجودة في نهاية المناظرة تعقيباً على بعض المعلومات المشار إليها فيها.

* * *

الكلمة الأولى لويليام كريغ:

أود أن استهل كلمتي بتوجيه الشكر لمركز الفلسفة والأديان علىٰ دعوتي للمشاركة في مناظرة الليلة في هذا المكان، فقضية المصدر الحقيقي للأخلاق تتجاوز الاهتمام الأكاديمي الكبير إلىٰ تطبيق عملي هائل في حياتنا[1]. ولنبدأ الآن بنقطةِ توافقٍ مهمة[2]: أتفق أنا والدكتور هاريس علىٰ وجودٍ موضوعي للقيم والواجبات الأخلاقية، ووصفُ القيم والواجبات بأنها موضوعية يعني أنها صالحة (Valid) وملزمة (Binding) بمعزل عن الرأي البشري، فإن قلنا مثلاً إن محرقة اليهود شر موضوعي فهذا يعني أنها شر ولو كان النازيون الذين ارتكبوا تلك

---

(١) لفتة ذكية من كريغ. فهي تردم الهوة المفتعلة بين العالم الأكاديمي وعالم «العيش» - بتعبير إدموند هوسرل، مؤسس الظاهراتية - وفائدة الوصل بين هذين العالمين هي التنبيه علىٰ القيمة الكونية الفطرية للأخلاق، وأنها ليست مسألة «علمية» يستأثر بمناقشتها طائفة محدودة من البشر. (ش).

(٢) يستخدم كريغ هنا، وكما سيأتي، تقنية في علم التواصل تعرف بتقنية الاحتواء والمجاراة، وهي تقنية إقناعية قوية في علم الجدل والمناظرة. تنص هذه التقنية علىٰ البدء بنقاط التوافق والترحيب بها. ومن فوائدها تضييق نطاق الخصومة وصناعة إطار قبول موحد بدلاً من أطر مختلفة. (ش).

الجريمة يرونها فضيلة، وستبقىٰ شرّاً علىٰ فرض أن النازيين ربحوا الحرب العالمية الثانية ونجحوا في غسل أدمغة الجميع وإبادة كل من يخالفهم الرأي ووصلوا إلىٰ درجة يظن كل الناس فيها أن المحرقة فضيلة.

إحدىٰ الميزات العظيمة[1] لكتاب الدكتور هاريس الأخير «المشهد الأخلاقي (The Moral Landscape)»[2] هي تأكيده الواضح علىٰ موضوعية القيم والواجبات الأخلاقية، حيث هاجم فيه «العلماء الملحدين المؤمنين بعدمية الأخلاق» والنسبويين (Relativists) الذين يرفضون استنكار الفظاعات الرهيبة باعتبارها شرّاً موضوعيّاً كالقطْع المشوِّه للأعضاء التناسلية Genital mutilation للفتيات الصغيرات[3]. وصرح قائلاً، وهو مُحِقّ: «لو وُجد مجرد رجل واحد في العالم يمسك بطفلة خائفة تكافح وتصيح، فيقطع أعضاءها التناسلية بشفرة منتنة ثم يقطبها بعد ذلك... فالسؤال الوحيد الذي يجب طرحه يتعلق بشدة العقوبة التي يجب إنزالها بهذا المجرم...»[4]. **فما لا نسأل**

---

(١) استمرار في استخدام تقنية الاحتواء بقطع النظر عن صحة المضمون. (ش).

(٢) من أجرأ المحاولات وأكثرها ابتكاراً لتأصيل الأخلاق في إطار يستثني الحاجة للخالق، كتاب سام هاريس «المشهد الأخلاقي» *The Moral Landscape: How Science Can Determine Human Values*، خاصة محاولته التقعيدية في الفصل الأول المعنون بـ«الحق الأخلاقي» moral truth، ص (٢٧). الكتاب من منشورات Free Press، ٢٠١٠م. (ش).

(٣) يقصد ختان البنات. (المترجم).

(٤) سوف يتبين من الإلزامات التي سيطرحها كريغ أن الاعتراض علىٰ الختان لا ينبني=

عنه في هذه الحالة: هو ما إذا كان فعل هـذا الـشخص خطأ موضـوعيّاً فظيعاً.

وبالتـالي فالقـضية المطروحـة أمامنـا في هـذه الأمـسية: «مـا هـو الأساس الأفضل لوجود قيم وواجبات أخلاقيـة موضـوعية؟ علىٰ أي شيء تبنىٰ؟ وما الذي يجعل تصرفات معينة تعتبر خيراً أو شرّاً، صواباً أو خطأً، موضوعيّاً؟».

سأدافع في مناظرة الليلة عن ادعاءين أساسيين:

١ - إن كـان الإلـه موجـوداً فـسيكون لـدينا أسـاس متين Sound لوجود القيم والواجبات الأخلاقية الموضوعية.

٢ - إن كان الإله غير موجود فلن يكون لدينا أساس متين لوجود القيم والواجبات الأخلاقية الموضوعية[1].

=علىٰ إنكار موضوعي عند الملحد. (ش).

(١) مـن عبـارات الإمـام ابـن تيميـة الجامعـة عـن الله: «مؤصّـل كـل أصـل». الفتـاوىٰ (٢/ ١٩). ويعبرون عنه في أدبيات اللاهوت الغربي بـ «أساس الكينونـة» Ground of Being. فهـو أصـل الحق في العلـم والأخـلاق معـاً، وقـد وصـف الله نفسه في القـرآن بمـا لا تجـده في أي مـن الكتـب الأخـرىٰ. فقـد وصـف نفـسه بأنـه خلـق السماوات والأرض وما بينهما بـالحق، ووصـف نفسه بأنـه وضـع الميزان، وهـو ميزان العدل في الحكم والعلم. ووصف نفسه بأنه هو الحق. وكلها معان تدل علىٰ أن تصور عدم الله كاف في تصور عدم مـا سـواه وبطلانـه. فهـو الـذي إذا تخلىٰ عـن الأشياء معنوية كانت أم حسية «فهي باطل يكفي في عـدمها وبطلانهـا نفس تخليه عنها». الفتاوىٰ (٢/ ٤٢٥). والحاصل أن مـا قـرره كريـغ وابتـدأ بـه صـحيح واقعـاً وشرعـاً، ومستقيم منهجيّاً وجدليّاً. (ش)

ولنلاحظ الآن أن كلا الادعاءين مشروط، ولن أحاجج اليوم لإثبات وجود الإله، إذ ربما كان الدكتور هاريس محقّاً بأن الإلحاد صحيح، لكن ذلك لن يؤثر علىٰ صحة الادعاءين اللذين قدمتهما، لكن غاية ما سيدل عليه ذلك أن القيم والواجبات الأخلاقية الموضوعية لن تكون موجودة بخلاف ما يدعيه الدكتور هاريس.

لننظر معاً في الادعاء الأول: إن كان الإله موجوداً فسيكون لدينا أساس متين لوجود القيم والواجبات الأخلاقية الموضوعية، وهنا أريد أن أختبر نقطتين فرعيتين معكم.

الأولىٰ، يوفر الإيمان بالإله الواحد المتعال Theism أساساً متيناً للقيم الأخلاقية الموضوعية، فالقيم الأخلاقية تتعامل مع الخير أو الشر، وفي رؤية المؤمنين بإله نجد أن القيم الأخلاقية الموضوعية أساسها من الإله، والإله بالتعريف كما يراه القديس أنسلم St. Anselm: «أعظم موجود يمكننا تصوره»، وبالتالي فهو الخير الأسمىٰ، لكن الحقيقة أنه ليس مجرد خير محض، بل هو أصلٌ ومثالٌ للقيم الأخلاقية، فذات الإله الودود القدوس تقدم المعيار المطلق الذي تقاس به كل الأفعال، فهو بذاته ودود كريم مؤمن رحيم وما إلىٰ هنالك من الصفات، ولذلك فإن كان الإله موجوداً فإن القيم الأخلاقية الموضوعية موجودة ومستقلة تماماً عن البشر[1].

---

(١) ربما تثري مراجعة الخلاف بين المعتزلة والأشاعرة والسنة في مبحث الحسن والقبح: هل الحسن حسن بإرادة الله أم حسن لأن ذاته كذلك؟ ومما ترتب علىٰ=

والنقطة الثانية: أن الإيمان بالإله يقدم أساسًا متينًا للواجبات الأخلاقية ذات الوجود الموضوعي، وهذه الواجبات في رؤية الإيمان بإله تفرضها وصايا الإله، إذ يُعبِّر لنا بالوصايا الإلهية عن طبيعة الرب الأخلاقية، وتصوغ الوصايا لنا واجباتنا وفرائضنا الأخلاقية، ووصايا الإله أبعد ما تكون عن التعسف والاعتباطية، ويلزم أن تكون متسقة مع قداسته وصفته الودود. فواجباتنا مؤسسة علىٰ وصايا الإله، التي تعكس بدورها صفاته الرئيسة، ويمكن إجمال كل الواجبات الأخلاقية للإنسان في التعاليم اليهودية والمسيحية في وصيتين عظيمتين:

١ - يجب أن تحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل قوتك، ومن كل عقلك.

٢ - يجب أن تحب جارك كما تحب نفسك.

فعلىٰ هذا الأساس يمكننا أن نجزم بأن كلًّا من المحبة والكرم والتضحية بالنفس والعدالة خيرٌ موضوعي، وأن ننكر في المقابل الأنانية والكراهية والإيذاء والتمييز والظلم كخطايا موضوعية.

والخلاصة إذاً أن الإيمان بالإله يوفر مصادرَ تُقَدمُ أساسًا متينًا للأخلاق يتيح بناء كل من القيم الأخلاقية الموضوعية والواجبات

=هذا الخلاف إيجاب المعتزلة علىٰ الله فعل الأصلح. والكلام يطول في هذه المسألة، فلتراجع في مظانها.

ويُنظر: مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه: عرض ونقد في ضوء الكتاب والسنة، تأليف د. خالد عبد اللطيف، ط. الجامعة الإسلامية. (ش).

الأخلاقية الموضوعية؛ وهكذا أعتقد بوضوح أن الإله إن كان موجوداً فسيُمدنا بأساس متين لوجود القيم والواجبات الأخلاقية الموضوعية.

ودعونا الآن ننتقل للادعاء الثاني الذي قدمته: «إن كان الإله غير موجود، فلن يكون لدينا أساس متين لوجود القيم والواجبات الأخلاقية الموضوعية».

ولننظر بداية في السؤال المطروح حول القيم الأخلاقية الموضوعية، لو لم يكن الإله موجوداً فما الأساس الذي يبقىٰ لدينا لتفسير وجود القيم الأخلاقية الموضوعية؟ وبالتحديد، لماذا نعتقد أن الكائنات البشرية ستمتلك قيمة أخلاقية موضوعية؟ فالإنسان من وجهة النظر الإلحادية ليس إلا منتجاً ثانويّاً للمصادفة في الطبيعة، وقد تطور في وقت متأخر نسبيّاً فوق ذرة غبار كوني متناهية في الصغر تدعىٰ الأرض، وقدّر عليه الفناء الفردي والجماعي في زمن قصير نسبيّاً.

يصعب في الرؤية الإلحادية إيجاد أي سبب للاعتقاد بأن رخاء البشرية خيرٌ موضوعي، ولا تختلف عندهم مصلحة البشر عن مصلحة النمل أو الجرذان أو الضباع، وهو ما يسميه الدكتور هاريس «معضلة القيم»[٣].

غرض كتاب الدكتور هاريس (المشهد الأخلاقي) هو شرح الأساس الإلحادي لوجود القيم الأخلاقية الموضوعية[٤]، ويرفض في كتابه تماماً أن تكون الأخلاق أشياء أفلاطونية توجد مستقلة عن

العالم[٥]. ولذلك فإن ملاذه الأخير كان محاولة وضع أسس للقيم الأخلاقية في العالم الطبيعي، لكن كيف له أن يفعل ذلك طالما أن الطبيعة محايدة أخلاقيًا في ذاتها وعلىٰ ذاتها؟ ففي رؤية المذهب الطبيعي تكون القيم الأخلاقية مجرد منتج ثانوي للتطور البيولوجي والتكيف الاجتماعي، ويرجع امتلاك جماعة البابون[1] سلوكًا تعاونيًا، بل وحتىٰ سلوك التضحية بالنفس، وفق هذه الرؤية إلىٰ أن الانتقاء الطبيعي حدد أن في ذلك منفعة لصراع البقاء علىٰ قيد الحياة، ولذلك فقد طور ابن عم البابون «الإنسان العاقل *Homo sapiens*» نوعًا من أخلاق القطيع للسبب نفسه تمامًا، ونتيجة للضغط البيواجتماعي تطورت أخلاق القطيع عند الإنسان العاقل، وتفيد هذه الأخلاقيات كثيراً في استدامة نوعنا البشري. لكن من الجهة الأخرىٰ، لا يوجد في الرؤية الإلحادية أي شيء يجعل تلك الأخلاقيات صحيحة وملزمة موضوعيًا.

ذكر فيلسوف العلم مايكل روس[2] ما نصه:

«يقول التطوريون المعاصرون إن لدىٰ البشر وعيًا بالأخلاقيات لأن هذا الوعي له قيمة بيولوجية، فالأخلاقيات تكيفٌ بيولوجي، كاليدين والرجلين والأسنان تمامًا... وعلم الأخلاق مجردُ وهمٍ عند النظر إليه كمجموعة مبررة ورصينة من الادعاءات حول شيء

---

(١) الرُّبَّاح – وهو أحد أنواع القردة- (المترجم).

(٢) Michael Ruse وهو فيلسوف ملحد (المترجم).

موضوعي ما. أقدّر أحدهم عندما يقول «أحب جارك كما تحب نفسك» معتقداً أنه يساوي الآخر بنفسه أو يؤثره علىٰ نفسه... لكن هذا التوجه لا أساس له في الواقع، فالأخلاق مجرد أمر يساعد علىٰ البقاء والتكاثر... وأي معنىٰ يتجاوز هذا فهو مجرد وهم»[٦].

إن أردنا إرجاع فيلم تطور الحياة البشرية إلىٰ أوله ليبدأ من جديد فربما ينشأ بشر آخرون تتطور عندهم قيم أخلاقية مباينة تماماً لتلك التي نملكها، وقد كتب داروين بنفسه عن ذلك في كتابه أصل الإنسان: «لو نشأنا في شروط مطابقة تماماً للشروط التي نشأت فيها خلية النحل فلن يكون هناك أدنىٰ شك بأن إناث البشر غير المتزوجات (كالعاملات في خلية النحل) سيرين أن قتل إخوانهن واجب مقدس، وستسعىٰ الأمهات لقتل بناتهن الخصيبات ولن يفكر أحد في التدخل لمنع ذلك»[٧].

إن التفكير بخصوصية الوجود الإنساني، وأن أخلاقنا صحيحة موضوعيّاً، يعني استسلامنا لإغراءات التمييز وفق النوع البيولوجي Speciesism، أي التصريح بالانحياز غير المبرر لمصلحة نوعنا بالتحديد.

لو لم يكن هناك إله فسيزول أي سبب لادعاء الصحة الموضوعية لأخلاقيات القطيع التي تطورت عند الإنسان العاقل علىٰ هذا الكوكب؛ أخرِج الإله من المشهد ولن يبقىٰ سوىٰ كائنات تشبه القرود تعيش علىٰ ذرة من الغبار الكوني تشغلها أوهام سمو الأخلاق.

ربما يكون تقويم ريتشارد دوكنز لقيمة الإنسان مخيباً للآمال، لكن لماذا «وفقاً لإلحاده» يكون مخطئاً عندما قال:

«لا يوجد بعد التمحيص أي تصميم أو أي غاية، لا شرٌّ ولا خيرٌ، لا يوجد شيء إلا بلادة إحساس لا معنىٰ لها... لسنا سوىٰ آلات لتكاثر الحمض النووي DNA... إنه الهدف الوحيد لوجود كل كائن حي»؟[٨].

إذاً كيف يطرح سام هاريس حلًّا لمشكلة القيم؟ لقد طرح ببساطة حيلة أعاد بها تعريف ما يقصده من كلمة «الخير» و«الشر» وذلك بمصطلحات ليست هي من مصطلحات علم الأخلاق في شيء، فقال: «علينا أن نعرّف الخير بأنه ما يؤدي إلىٰ رخاء الكائنات الواعية»[٩]، ويتابع قائلاً: «لذلك فإن قضايا القيم... هي بالحقيقة قضايا عن رخاء الكائنات الواعية»[١٠]، وبالتالي يستنتج: «لا يوجد أي معنىٰ.. لأن تسأل إن كانت زيادة الرخاء أمراً خيّراً»[١١]. لم لا؟ فهو يعيد تعريف كلمة «خير» لتصبح «رخاء الكائنات الواعية»، ولذلك فأن تسأل: «لماذا تعتبر زيادة رخاء الكائنات أمراً خيّراً؟» يعادل وفق تعريفه الجديد سؤال: «لماذا تعتبر زيادة رخاء الكائنات زيادة في رخاء الكائنات؟» إنه مجرد حشو، إنه مجرد الحديث في دوائر مفرغة! وهكذا «حل» الدكتور هاريس مشكلة القيم بإعادة تعريف مصطلحاته فقط، وهذا مجرد تلاعب بالألفاظ.

وفي نهاية المطاف لا يتحدث الدكتور هاريس حقيقة عن القيم

الأخلاقية إطلاقاً، بل يتكلم حول ما يؤدي لازدهار الحياة الواعية علىٰ هذا الكوكب، وفي ضوء هذا فإن ادعاءه بأن العلم قادر علىٰ إخبارنا بالكثير حول ما يساهم في ازدهار النوع الإنساني لا جدال حوله، إذ يستطيع العلم ذلك بالطبع، تماماً كما يستطيع أن يخبرنا بما يؤدي لازدهار نبات الذُّرَة أو حشرات البعوض أو الجراثيم. فما سماه بالمشهد الأخلاقي (الذي يصف حالات الزيادة والنقصان في رخاء البشر) ليس مشهداً أخلاقيّاً البتة.

وهكذا فشل الدكتور هاريس في حل مسألة القيم، إذ لم يقدم أي تبرير أو شرح علىٰ أرضية إلحادية لسؤال: لماذا ستوجد القيم الأخلاقية وجوداً موضوعيّاً، فما سماه «حلًّا» لم يكن سوىٰ حيلة للتلاعب بدلالات الألفاظ Semantical trick بإعادة تعريف اعتباطية وذاتية التركيب Idiosyncratic لمصطلحات الخير والشر بمفرداتٍ غير مفردات علم الأخلاق.

أما بالنسبة للسؤال الثاني «هل يوفر الإلحاد أساساً متيناً للواجبات الأخلاقية الموضوعية؟» فالواجب يتعلق بالإلزام أو التحريم الأخلاقي، ما يجب عليّ فعله وما يجب عليّ ألا أفعله، وهنا سحق مراجعو كتاب المشهد الأخلاقي بلا رحمة محاولة الدكتور هاريس تقديم تبرير يعتمد علىٰ المذهب الطبيعي لوجود الواجب الأخلاقي إذ برزت مشكلتان:

الأولىٰ أن العلم الطبيعي يخبرنا فقط عما يكون What is، ولا

يخبرنا عما يجب أن يكون What ought to be، كما كتب الفيلسوف جيري فودر[1]: «يتكلم العلم في الحقائق، وليس في المثاليات، وقد يخبرنا عن حالنا، ولكنه لن يخبرنا عن الخطأ الذي نحن عليه»[١٢]. وتحديداً فلا يمكن للعلم أن يخبرنا بأن علينا واجباً أخلاقيّاً للقيام بأفعال تؤدي لازدهار البشرية.

وهكذا لو لم يوجد إله، فما الأساس المتبقي لوجود الواجبات الأخلاقية الموضوعية؟ فالكائنات البشرية من وجهة نظر المذهب الطبيعي مجرد حيوانات، وليس علىٰ الحيوانات أي واجب أخلاقي تجاه بعضها بعضاً، وعندما يقتل الأسد الحمار الوحشيّ فإنه يقتله فقط، ولا يرتكب جريمة قتل، وكذلك الأمر عندما ينزو القرش الأبيض الكبير علىٰ إحدىٰ إناث القرش عنوة، فقد نزا عليها عنوة ولم يغتصبها، لأن أيّاً من هذه الأفعال لا يعتبر ممنوعاً أو واجباً. لا يوجد أي بعد أخلاقي لهذه الأفعال.

وهكذا لو لم يكن الإله موجوداً، فلماذا نعتقد أن علينا أي واجبات أخلاقية لفعل أي شيء كان؟ من أو ما الذي يفرض علينا هذه الإلزامات؟ من أين تأتي؟

من الصعب جداً ألّا نعتبرها حينها مجرد انطباعات ذاتية مغروسة فينا بفعل المجتمع والوالدين.

---

(١) Jerry Fodor (المترجم).

من وجهة النظر الإلحادية قد لا تكون بعض الأفعال كالاغتصاب ونكاح المحارم مفيدة بيولوجيّاً أو اجتماعيّاً، وهكذا في سياق تطور الإنسان وتحضره أصبحت من المحرمات، أي أصبحت سلوكاً غير مقبول اجتماعيّاً، لكن ذلك لا يثبت أبداً أن تلك الأفعال خطأ حقيقي، فمثل هذا السلوك يحدث دوماً في المملكة الحيوانية. ومن وجهة النظر الإلحادية فإن المغتصب الذي اختار خرق أخلاقيات القطيع، لا يقوم بفعل أكثر خطراً من ممارسة شيء غير مألوف، أو إن شئت فاعتبره المكافئ الأخلاقي لما تفعله الراقصة ليدي غاغا من خرق للموضة[1] Lady Gaga. إن لم يوجد أي سلطة قانونية أخلاقية فلن يوجد أي قانون أخلاقي موضوعي، وإن لم يوجد أي قانون أخلاقي موضوعي فلن يكون لدينا واجبات أخلاقية موضوعية.

ولذلك فإن رؤية الدكتور هاريس تفتقر لوجود أي أساس لوجود الواجبات الأخلاقية الموضوعية.

المشكلة الثانية: إن «الوجوب» يقتضي «الاستطاعة»، فالشخص غير مسؤول أخلاقيّاً عن فعل لا يستطيع اجتنابه، فعلىٰ سبيل المثال إن دفعك أحدهم من الخلف نحو شخص آخر فلن تكون مسؤولاً عن اصطدامك به، إذ ليس لديك خيار، لكن سام هاريس يؤمن بأن كل أفعالنا (محتومة سببيّاً) Causally determined وأنه لا توجد إرادة حرة[١٣]. يرفض هاريس تفسيرات التحرُّريين libertarians لوجود

(١) مغنية أمريكية غريبة الأطوار - (المترجم).

الإرادة الحرة، بل يرفض أيضاً تفسيرات التوافقيين[1] Compatibilistic للحرية. لكن إن لم توجد أي إرادة حرة، فلا مسؤولية أخلاقية لأحد عن أي شيء! ويعترف الدكتور هاريس في النهاية بهذا الأمر، رغم أنه أخفىٰ هذا في الملاحظات الختامية لكتابه، فالمسؤولية الأخلاقية وفق قوله وبنص كلامه «بناء اجتماعي» وليست حقيقة موضوعية، وأقتبس بالنص منه: «بمصطلحات علم الأعصاب، لا يوجد شخص أكثر أو أقل مسؤولية من الآخر» عن الأفعال التي يؤديها[١٤]. وهو ينهي بإصراره علىٰ مذهبه الحتمي كل أمل متبق أو إمكانية لوجود الواجبات الأخلاقية الموضوعية لأننا في رؤيته الكونية لا نملك أي تحكم بما نقوم به.

وهكذا فمن وجهة نظر الدكتور هاريس، لا يوجد أي **أساس** للواجبات الأخلاقية الموضوعية لأنه لا يوجد مشرّع للقانون الأخلاقي، وليس هناك **إمكانية** لوجود الواجبات الأخلاقية الموضوعية بسبب غياب الإرادة الحرة، وهكذا فرغم اعتراضه بأن رأيه هو العكس، فمن وجهة نظره أن الصواب والخطأ لا يوجدان حقيقة.

ولذلك تفشل رؤية المذهب الطبيعي عند الدكتور هاريس في توفير أساس متين لوجود القيم والواجبات الأخلاقية الموضوعية، وبالتالي إن لم يوجد الإله فلن يوجد عندنا أي أساس متين للأخلاق

---

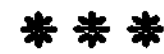
(١) الذين يوفقون بين مذهب الإرادة الحرة ومذهب الجبرية (المترجم).

الموضوعية، وهذا هو ادعائي الثاني.

والخلاصة، رأينا كيف أنه إن كان الله موجوداً فسيكون لدينا أساس متين للقيم الأخلاقية الموضوعية وللواجبات الأخلاقية الموضوعية، لكن إن لم يكن الله موجوداً فلن يكون لدينا أساس متين للقيم والواجبات الأخلاقية الموضوعية، ولذلك يقف إلحاد الدكتور هاريس في موقف هش للغاية ضمن نظريته الأخلاقية.

ما أعرضه علىٰ الدكتور هاريس اليوم ليس مجموعة جديدة من القيم الأخلاقية، إذ أعتقد علىٰ العموم أننا نشترك بالأخلاقيات العملية نفسها Applied ethics، لكن ما أعرضه عليه اليوم هو الأساس المتين للقيم والواجبات الأخلاقية الموضوعية التي نتمسك بها كلانا.

شكراً جزيلاً لكم.



الكلمة الأولى لسام هاريس:

أريد أن أعبر فقط عن مدىٰ فخري لوجودي في نوتردام، وأنا سعيد جدّاً بمناظرتي للدكتور كريغ، المدافع المسيحي الذي يبدو أنه زرع مخافة الله في كثير من زملائي الملحدين. استلمت في الواقع عدداً لا بأس به من الرسائل الإلكترونية هذا الأسبوع، والتي تقول بطريقة أو أخرىٰ ما يلي، «أخي رجاءً، لا تضيّع هذه الفرصة» لذلك ستكونون أنتم الحَكَم.

كما يعلم كثير منكم لقد قضيت قدراً كبيراً من الزمن في انتقاد الدين. ومن الأمور الجانبية لهذا العمل أنك تسمع مباشرة من جميع الناس الذين يعتقدون بأن انتقاد الدين أمر فظيع. والغريب أن سبب نهوض الناس للدفاع عن وجود الله ليس بسبب وجود كثير من الأدلة علىٰ وجود الله، بل لأنهم يعتقدون أن الإيمان بالله هو الإطار الفكري الوحيد لوجود الأخلاق الموضوعية. ومن الواضح أن الدكتور كريغ أحد هؤلاء.

والمعنىٰ أنه دون الإيمان بوجود الحقائق الأخلاقية، وأن كلمات من مثل «الحق» و«الخطأ»، «الخير» و«الشر» تعني في الواقع شيئًا ما،

ستضل البشرية سبيلها، هنا يكمن الخوف. وأنا حقّاً أشاطر الناس هذا الخوف. وقد أصبحت أعتقد بأن هذا القلق الموجود لدىٰ كثير من الناس المتديّنين بخصوص تدهور الأخلاق العلمانية، ليس عديم الأساس تماماً.

تحدثت مرة في لقاء أكاديمي حول هذه الموضوعات، وقلت كما سأقول لكم الليلة، إننا بمجرد فهمنا للفضيلة علىٰ أنها رخاء الإنسانية، سنكون قادرين علىٰ طرح ادعاءات راسخة حول السلوكيات والسبل الحياتية المناسبة لنا والأخرىٰ غير المناسبة. واقتبست كمثالٍ السادية وكراهية النساء لدىٰ طالبان كنظرة للعالَم، والتي كانت أقل إسهاماً في ازدهار الإنسان. وقد تبيّن أن تشويه سمعة طالبان في لقاء علمي أمر يثير الجدال، فقد انغمست بعد ملاحظاتي في نقاش مع متحدثة أخرىٰ، وسارت المحاورة تقريباً كما يلي:

قالت: «كيف يمكن لك أن تقول إن إجبار النساء علىٰ لبس البرقع أمر خطأ من وجهة نظر العلم؟» فأجبت، «حسناً، لأنني أعتقد أن من الواضح جدّاً أن الصحيح والخطأ يتعلق برخاء البشر، كما أن من الواضح أيضاً أن إجبار نصف السكان علىٰ العيش في أكياس من القماش وضربهن، أو قتلهن عندما يحاولن الهروب، ليس أسلوباً لتعزيز رخاء البشرية»[1].

---

(١) يُلاحظ هنا أسلوب خلط الأوراق والتعميم السيئ وكذلك اقتطاع الصور الحقيقية من سياقها، إذ المعلوم أنه كلما بالغت المرأة في حجابها وسط الرجال الأجانب=

قالت بدورها، «حسناً، هذا رأيك فقط» فقلت، «حسناً، نعم، لنسهّل الأمر أكثر من ذلك. لنقل إننا وجدنا ثقافة تقول حرفيّاً بقلع عيون كل طفل ثالث، عند الولادة. هل ستوافقين عندها بأننا وجدنا ثقافة لا تحسّن تماماً من رخاء الإنسان؟».

قالت، «هذا يعتمد علىٰ سبب قيامهم بهذا» لذا بعد أن أفَقت من دهشتي البالغة، قلت، «حسناً، لنقل إنهم كانوا يقومون بهذا لأسباب دينية.

لنقل إن لديهم كتاباً مقدساً ينص علىٰ التالي: «يجب علىٰ كل طفل ثالث أن يسير في الظلمة» أو أي هراء من ذلك القبيل» عند ذلك قالت «حسناً، لن تستطيع إذاً القول بأنهم علىٰ خطأ» صحيح، لذلك فإنني - أريد أن تعلموا، أن محدثتي ذات خلفية عميقة في العلم والفلسفة، وكانت في الواقع في المجلس الاستشاري للأخلاقيّات البيولوجية لرئيس الجمهورية The President's Council on Bioethics. وهي واحدة من ثلاثة عشر شخصاً يقدمون المشورة للرئيس حول المقتضيات الأخلاقية للتطوّرات في الطب والعلوم

=عنها أو الغرباء فإن ذلك يوفر لها أمانا أكبر من نظرات الطمع أو التعدي عليها أو التربص بها كما هو معلوم من واقع الدول المتساهلة في لباس النساء من تفشي ظاهرة الاغتصاب والضرب والقتل، العجيب هنا هو مقال للدكتور الأمريكي هنري ماكو Henry Makow علىٰ موقعه الخاص بعنوان: «البرقع مقابل البكيني وفسوق المرأة الأمريكية» Bikini vs. Burka: The Debauchery of Women - يصف فيه الفارق بين الحشمة والعري!! الرابط: http://henrymakow.com/180902.html (المترجم).

والتقنية ذات الصلة، وألقت لتوّها محاضرة بالغة الوضوح حول المقتضيات الأخلاقية للعلوم العصبية للمجلس، وكانت قلقة خصوصاً حول إخضاع الإرهابيين المعتقلين لتقنية التصوير العصبي لكشف الكذب - واعتبرتها انتهاكاً حقيقيّاً لا أخلاقيّاً لحق حريّة الإدراك. لذلك فقد كان ورعها الأخلاقي من جهة مرهفاً لتتنصل من خطيئة أخلاقية يصعب إدراكها في حربنا على الإرهاب؛ ولكنها من جهة أخرى مستعدة تماماً للصفح عن ولع بعض الثقافات البدائية بقلع عيون الأطفال في طقوسها الدينية[1]. وبدا لي من المرعب جدّاً انفصالها عن المعاناة الحقيقية الحالية لملايين النساء في أفغانستان، ولذلك أرى أن ازدواجية المعايير هذه تمثل مشكلة. ومن الغريب أن هذا بالضبط هو تدهور الحس العام السليم الذي يبدي كثيرٌ من المتدينين قلقهم تجاهه. آمل أن يتضح لكم في نهاية هذه الساعة، أن الدين ليس جواباً لهذه المشكلة، حسناً؟ الإيمان بالله ليس ضروريّاً للأخلاق المشتركة فحسب، لا وألف لا، بل هو بذاته مصدر العمى الأخلاقي.

نؤمن عموماً بوجود كمّيّتين في هذا الكون - هنالك الحقائق Facts من جهة، ويمكن للعلم بالطبع أن يقدم نقاشاً دقيقاً جدّاً

(١) مرة أخرى يتلاعب هاريس هنا بالتعميمات والخلط بين الأوراق، حيث باب الأخلاق في الأديان يتوافق مع العقل والفطرة في التحسين والتقبيح، وذلك بعكس التشريعات والتي تدخل فيها غالبا التحريفات والأهواء مثل تشريع (ساتي) الهندوسي والذي يتم فيه قتل الزوجة حرقا بعد موت زوجها!! (المترجم).

حولها؛ وتأتي بعدها القيم Values، التي قد يعتقد كثير من الناس، مثل الدكتور كريغ، أن العلم لا يستطيع مقاربتها، وهي الأسئلة حول المعنىٰ، والفضيلة، ولِمَ كانت الحياة. بالطبع يعتقد الجميع أن باستطاعة العلم مساعدتنا في الحصول علىٰ ما نجده ثميناً، نعم، لكنه لن يخبرنا ما الذي ينبغي أن يكون كذلك، نعم، ولذلك لا يمكن استخدام العلم مبدئيّاً للحصول علىٰ إجابة عن الأسئلة الأكثر أهمية في حياة الإنسان – مثلاً كيف ينبغي أن ننشئ أطفالنا؟ أو مم تتكون الحياة الجيّدة؟ ويُعتقد الآن، من وجهة نظر العلم، كما يوافق الدكتور كريغ علىٰ هذا الرأي، أن كل ما نراه عندما ننظر للكون هو أنماط من الأحداث – مجرد شيء يتبع الآخر – ولا توجد زاوية من الكون تعلن أن أحداثاً محددةً منه خيّرة أو شريرة، صحيحة أو خطأ، بالاستقلال عنّا؛ أقصد مستقلة عن عقولنا – فنحن من نعلن أن أحداثاً محدّدة أفضل من غيرها. لكن بالقيام بهذا، يبدو أننا نقوم فقط بإسقاط قيمنا الخاصة ورغبتنا علىٰ واقع جوهره خالٍ من القيم. ومن أين تنبع مفاهيمنا عن الصواب والخطأ؟ حسناً من الواضح أنها قد طبعت فينا عبر التطوّر، فهي نتاج تلك الدوافع القِرديّة الملحة والأحاسيس الاجتماعية؛ وبعدها تعدلت من خلال الثقافة. ولنأخذ الغيرة الجنسية كمثال؛ إن هذا السلوك مغروس فينا علىٰ مدىٰ ملايين السنين، حسناً. لقد كان يطمع أسلافنا جدّاً بأزواج بعضهم بعضاً، رغم حقيقة أن الجميع كان مغطىٰ بالشعر، وله أسنان فظيعة؛ وأصبحت حالة التملّك

هذه مستقرة في أعراف ثقافية مختلفة كعرف الزواج. حسناً، لذلك فالعبارة التالية، «من الخطأ خيانة أحد لزوجه»، حسناً، تبدو أنها مجرّد تراكم لهذه المصادفات. يبدو أنه أمر بدهي تقرره البيولوجيا، حسناً. يبدو أنه من وجهة نظر العلم، ليس خطأً في الواقع أن تخون زوجتك، حسناً. هذا الأمر يشبه تماماً ما يعتري القرود من القلق، ولكننا تعلمنا كيف نعبر عن القلق بالكلمات، حسناً.

وهنا يبدأ الأفراد المتديّنون كالدكتور كريغ، بالشعور ببعض الانزعاج، وحُقّ لهم ذلك، كما أظن. إذ لا يجد كثير من الناس بديلاً عن إقحام رب إبراهيم – إله الحرب في العصر الحديدي – في آلية الزمن كمحكّم خفي للحقيقة الأخلاقية. خيانة المرء لشريكته خطيئة لأن يهوه قد حكم بذلك. وهذا مثير للفضول لأن يهوه في حالات مزاجية أخرىٰ أُولع كثيراً بالإبادة الجماعية، والعبودية، والتضحية البشرية. عليّ القول بأن من المسلّي نوعاً ما الاستماع إلىٰ الدكتور كريغ في ملاحظاته الافتتاحية وهو يقول إنّني أركّز فقط علىٰ ازدهار المخلوقات الواعية علىٰ هذا الكوكب. إن كان هذا إثماً، فسأتحمّله. ويتساءل المرء ما الذي يركّز الدكتور كريغ عليه[1].

تلقائيّاً عليكم ألا تثقوا بقراءة الدكتور كريغ لكتابي؛ فنصف الاقتباسات التي ذكرها «عني» والتي يعتقد أنني كتبتها كانت اقتباسات

(١) هذه تعمية، وإلا فقد ذكر الدكتور ويليام كريغ ما يريد التركيز عليه بكل وضوح، وقرره في نقطتين ناصعتين. (ش).

عن أفراد آخرين وضعتها في كتابي وغالباً لأمر مختلف، لذلك عليكم قراءة الكتاب نفسه.

إن ادعاء خضوع القيم لرفاه المخلوقات الواعية - كما أدعي - يطرح مفهومين: الوعي والرخاء. دعنا الآن نبدأ بالوعي - هذه ليست نقطة بدء عشوائية. تخيّل كوناً خالياً من احتمالية وجود الوعي - تخيّل كوناً مؤلفاً بالكامل من الصخور. حسناً، بالتأكيد ما من سعادة أو شقاء في هذا الكون؛ بل لا وجود فيه لخير أو شر؛ فلا مكان لتطبيق الأحكام القيمية. ولكي تكون التغيّرات في الكون ذات أهمية، فإنها يجب أن تكون على الأقل مهمة احتماليّاً بالنسبة لنظام واعٍ معيّن.

حسناً، ماذا عن الرخاء؟ حسناً، قد يبدو رخاء المخلوقات الواعية وارتباطه مع الأخلاق عرضة للتشكيك، لكن لا يجدر هذا. حسناً، إليكم الافتراض الوحيد الذي يجب عليكم طرحه، تخيّل كوناً تكون فيه كل المخلوقات الواعية تعاني بأكبر قدر ممكن، لأطول فترة ممكنة. حسناً، أدعو هذا «أسوأ بؤس ممكن للجميع». حسناً، إن أسوأ بؤس ممكن للجميع أمر سيّئ. حسناً، وإن كان لكلمة «سيّئ» أن تصح في مكان ما فهي تصح هنا. الآن، إن كنت تعتقد أن أسوأ بؤس ممكن للجميع ليس سيئاً، أو ربما له جانب مشرق، أو ربما هنالك ما هو أسوأ منه، فلا أعلم حقّاً عمَّ تتحدث[1]. كما أنني واثق جدّاً أنك

(١) يجب ألا تنطلي هذه المراوغة على القارئ؛ فهاريس يتحدث على مستوى بالغ التجريد من العموم والإطلاق بلا تخصيص وتقييد، وهو مستوى يجلب الوفاق=

أنت أيضـاً لا تعلم عمَّ تتحدث.

ما أريد قوله هو أن المعيار الأدنىٰ للصلاح الأخلاقي هو تجنّب أسوأ بؤس ممكن للجميع. إن كان علينا القيام بأي شيء في هذا الكون - إنْ فرض علينا أي شيء، إن كان لدينا مهمة أخلاقية للقيام بأي شيء- فهي تجنّب أسوأ بؤس ممكن للجميع.

وفي اللحظة التي تعترفون بهذا، تعترفون أيضاً بأن كل الحالات الأخرىٰ الممكنة للكون أفضل من أسوأ بؤس ممكن للجميع.

لديكم علىٰ هذا الجانب [ويشير بيده] «أسوأ بؤس ممكن للجميع»، وكل تلك المجموعة الأخرىٰ من التجارب موجودة هناك، ولأن خبرة المخلوقات الواعية تعتمد بشكل ما علىٰ قوانين الطبيعة، سيكون هنالك طرق صحيحة وأخرىٰ خطأ للتحرك علىٰ طول هذه السلسلة. من الممكن أن يظن بعضكم أنكم تتجنّبون أسوأ بؤس ممكن للجميع – ومن الممكن أن تفشلوا. قد تكونون مخطئين في معتقداتكم حول كيفية التحرك ضمن هذا الفضاء.

فهاكم حجّتي لوجود الحقيقة الأخلاقية في سياق العلم.

تعتمد قضايا الصواب والخطأ، والخير والشر، علىٰ العقول[1].

=كثيراً. بينما يتحدث كريغ علىٰ مستوىٰ آحاد الممارسات الأخلاقية وأعيانها، ولكن هاريس يتحاشىٰ النزول إلىٰ هذا المستوىٰ لأنه الواقع، ولذلك يلجأ هاريس من وقت لآخر إلىٰ الافتراض «لنفترض أن.. لنفترض أن». (ش).

(١) تعتمد علىٰ العقول كوسائل، ولكن هل تعتمد علىٰ العقول للحكم بموضوعيتها=

وتعتمد علىٰ الخبرة الممكنة. العقول ظواهر طبيعية[1]. وتعتمد علىٰ قوانين الطبيعة بطريقة أو بأخرىٰ، فالأخلاق والقيم الإنسانية قابلة للفهم علميًا، لأننا بالحديث عنها نتحدث عن جميع الحقائق المؤثرة علىٰ رخاء المخلوقات الواعية. وفي حالتنا هذه نتحدّث عن علم الجينات Genetics، والبيولوجيا العصبية Neurobiology، وعلم النفس Psychology، وعلم الاجتماع Sociology، وعلم الاقتصاد Economics.

الآن، انظر إلىٰ هذا الفضاء المكون من جميع الخبرات الممكنة كنوع من المشهد الطبيعي الأخلاقي، مع قمم تقابل حالات الرخاء

=الكونية؟ بالطبع كلا، وإلا كان جمعًا بين متضادين علىٰ أقل تقدير، فإن الشيء المخلوق لا يجمع في ذاته بين معنىٰ وسيلته ومعنىٰ غايته. ولابن القيم نص يوافق ما استقر عليه الرأي في العلوم الاجتماعية والأنثروبولوجية بشأن العقل، لا سيما في جانبه المكتسب، حيث يقول: «المعقولات ليس لها ضابط يضبطها، ولا هي منحصرة في نوع معين، فإنه ما من أمة من الأمم إلا ولهم عقليات يختصون بها؛ فللفرس عقليات، وللهند عقليات، ولليونان عقليات، وللمجوس عقليات، وللصابئة عقليات، بل كل طائفة من هذه الطوائف ليسوا متفقين علىٰ العقليات، بل بينهم فيها من الاختلاف والتباين ما هو معروف عند المعتنين به». الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٦٧).

(١) يجب الانتباه إلىٰ أن الصحة الموضوعية لهذه الدعوىٰ (أن العقول ظواهر طبيعية) متوقفة علىٰ دليل من خارج النظام الذي نشأت منه الدعوىٰ؛ أي تأصيل متعال (ترانسندنتالي)، وإلا آل الاستدلال إلىٰ الدور المنطقي لا محالة، ولكن هاريس يطلق الفرضيات جزافًا ويواصل السير بلا توقف. (ش).

العليا، وقيعان تقابل أشد المعاناة. وأول ما ينبغي إدراكه أنه قد يوجد العديد من القمم المتكافئة في هذا المشهد الطبيعي. قد يوجد كثير من الطرق المختلفة والمتكافئة أخلاقيّاً لازدهار البشرية. لكن سيوجد طرق أكثر تعيق ازدهارها. سيوجد الكثير من الطرق للفشل في الوصول للقمة، وواضح أنه توجد طرق أكثر لـ «المعاناة بلا ضرورة» في هذا العالم عوضاً عن الفرح العارم.

الآن، لا تزال طالبان المثال المفضل عندي، عن ثقافة تناضل ببأس لبناء مجتمع من الواضح أنه أقل خيراً من كثير من المجتمعات الأخرىٰ الممكنة. حسناً، متوسط عمر النساء في أفغانستان هو ٤٤ سنة. حسناً، ومعدّل معرفة القراءة والكتابة لديهن يبلغ ١٢٪. ولديهم تقريباً أعلىٰ معدل لوفيَات الرضّع ووفيَات الأمهات في العالم - كما لديهن أعلىٰ خصوبة تقريباً - لذلك فهنالك أفضل مكان علىٰ الأرض لرؤية النساء والرضّع يموتون. حسناً، يبدو لي من البدهي تماماً أن أفضل استجابة لهذا الوضع الأليم - والتي يمكن القول إنها الاستجابة الأكثر أخلاقية - هو عدم رمي حمض البطاريات[1] علىٰ وجوه البنات الصغيرات لارتكابهن جريمة تعلّم القراءة. الآن بالتأكيد، هذا منطق عام لنا، إلا إنْ صادف وكنت مختصّاً بالأخلاقيات الحيوية في مجلس يدلي بالمشورة لرئيس الولايات المتحدة في هذه اللحظة. لكنّني أقول

(١) حمض السلفوريك. (المترجم).

بالمحصلة إن هذه أيضاً حقائق حول البيولوجيا، وعلم الأعصاب Neurology، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الاقتصاد. ليس مخالفاً للعلم القول بأن طالبان مخطئة بخصوص الأخلاق، لأننا في اللحظة التي ندرك بها أننا نعلم أدنىٰ شيء عن رخاء البشرية، فعلينا قول هذا[1].

حسناً، قد يرغب بعض الناس الآن ممن تمتعوا بالقليل من التدريب الفلسفي بالقول، «ماذا لو أراد أب حرق وجه ابنته بحمض البطارية؟ من أنت لتنفي عنه الأخلاق وتميزه عنا؟ ماذا لو كان لديه تصوّر بديل للرخاء له شرعية مماثلة؟» أو «من ذا الذي يقول إن علينا الاهتمام بمصلحة البنات الصغيرات؟» هذا شكل من أشكال الرسائل الإلكترونية التي تصلني بالمصادفة. الآن، اتخذ هذا النوع من المشكّكين الأخلاقيين، وكذلك الدكتور كريغ، الموقف التالي مبدئيّاً بطريقة أو بأخرىٰ: دون وجود الرب نعتقد أن الطريق الوحيد للحكم بالخطأ علىٰ قيم الفرد يكون بقياسها إلىٰ قيم شخص آخر، وجميع تلك الأحكام يجب أن تكون متناظرة. حسناً، إن هذا غير صحيح،

---

(١) من الواضح إلىٰ هنا كما لا يخفىٰ علىٰ أي قارئ ملم بأنواع المغالطات أن هاريس يجيد تضييع المستمعين في منعطفات ومنحدرات مفاجئة ومتوالية. ما زال هاريس يعتمد في جل تقريراته علىٰ المغالطة المعروفة بـ Argument by assertion، أي: الاحتجاج بمجرد طرح القضية علىٰ أنها صواب - سواء بلسان الحال أو المقال - وتجاهل ما يترتب علىٰ تقريرها من تناقضات أو لوازم خاطئة. (ش).

فهنالك طرق كثيرة لتصبح (قيمي) خطأً موضوعيّاً، فقد تكون خطأ بالنسبة لقيم أعمق أعتقد بها، وقد تكون خطأ بالنسبة لقيم أعمق سأعتقد بها بمجرد أن أكون ذا تفكير أعمق. من الواضح وجودُ إمكانية لتقدير الأشياء التي تجعلك بالتأكيد تعيساً في هذه الحياة. حسناً، من الواضح أنك ستتقيد معرفيّاً وعاطفيّاً بالتجارب التي تريدها لو كنت فقط على ذكاء واطلاع يكفي لترغب بها. إذ من الممكن ألا يعرف المرء حقيقة ما ينقصه في حياته. لذلك قد تكون الأشياء صحيحة أو خطأ، خيّرة أو شريرة، بشكل مستقل تماماً عن آراء الشخص.

الآن، قد يقلق بعضكم لأنني لم أعرّف «الرخاء» بما يكفي. كيف يمكن لمفهوم بهذا القدر من الغموض أن يكون العلامة المرجعية للقيم الموضوعية؟ حسناً، لندرس بالمقارنة مفهوم الصحة الجسدية. فمن الصعب جدّاً تعريف مفهوم الصحة الجسدية كما تعلمون. وكان معتاداً القول: إن كنت «سليماً» فستتوقع الاستمرار حيّاً لعمر الأربعين. حتى الآن، تضاعفت أعمارنا المتوقعة خلال السنوات المائة والخمسين الماضية، فماذا تعني «الصحة»؟ حسناً، هو أمر قد يعني ألا تتقيأ باستمرار، حسناً، وألا تعاني من ألم شديد، وألاّ تعاني من حمى. نعم لكن ما هي السرعة التي يجب أن يستطيع الشخص «السليم» أن يركض بها؟ قد لا نجد جواباً لهذا السؤال، لكن هذا لا يجعل من قضية الصحة أمراً فارغاً من المضمون. نعم، لا يجعل هذا من الصحة قضية تعتمد على الرأي، أو العرف الثقافي. فالتمييز بين

السليم والميّت يشبه في وضوحه ومنطقه السببي أي شيء قد نمارسه في العلم. نعم، ولاحظ أنْ لا أحد يفكّر بانتقاد الأساس الفلسفي للطب بأسئلة من مثل، «حسناً، من أنت لتقول إن عدم التقيّؤ باستمرار أمر صحي؟ ماذا لو قابلت شخصاً يريد أن يتقيّأ، ويريد أن يتقيّأ إلىٰ أن يموت؟ كيف يمكنك أن تجادل بأنه ليس بصحة جيّدة تماثل صحتك؟» إن الحديث عن الأخلاق والقيم البشرية، باعتقادي هو حديث فعليّاً عن الصحة العقلية وعن صحة المجتمعات[1].

والحقيقة أن العلم كان وما زال موجوداً في مجال القيم، إذ ليس بإمكاننا ببساطة التحدث عن الحقائق دون اللجوء إلىٰ القيم. تأمل أبسط عبارة في الحقيقة العلمية: يتألف الماء من جزيئين من الهيدروجين وجزيء من الأوكسجين. قد يبدو هذا الكلام خالياً تماماً من القيم أكثر من أي كلام آخر ينطق به البشر. لكن ما الذي نفعله عندما يشكك شخص ما بحقيقة هذا الافتراض؟ نعم، جل ما يمكننا فعله هو الاحتكام إلىٰ قيم علمية: قيمة فهم العالَم، قيمة الدليل، قيمة الاتساق المنطقي. ماذا إن قال أحدهم، «حسناً، هذا

---

(١) يجب أن نلاحظ أن هذا صحيح حين نسلّم بأن العالم المادي المشهود (الحياة الدنيا) هو كل ما هنالك. من هذا المنطلق سيكون تفسيرنا لمنطلقات وغايات الأخلاق مختلفاً. ولكننا لا نسلم أصلاً لهاريس أنه قد افترض أفضل افتراض ممكن لرخاء البشر، إذ إننا نخالفه وندعي أن أفضل افتراض ممكن لرخاء البشر ينطوي علىٰ جوانب واعتبارات ومآلات أخرىٰ يهملها افتراض هاريس. (ش).

ليس ما أختاره عند التفكير بالماء. نعم، أنا كيميائي توراتي، وأقرأ سفر التكوين الأول بأن الله خلق الماء قبل خلق النور، وأفهم من ذلك أنه لم توجد نجوم، أي لم يكن هناك دمج للهيدروجين والهيليوم في عناصر أثقل مثل الأوكسجين؛ ولذلك لم يكن الأوكسجين موجوداً ليدخل في تركيب الماء، وهكذا فإما أن الله خلق ماءً دون أوكسجين، أو أن الله خلق أوكسجيناً خاصّاً لوضعه في الماء - لكن لا أعتقد أنه قام بهذا، فهذا غير لائق وفق الكتاب المقدس» نعم، ماذا عسانا أن نقول لهذا الشخص؟ نعم، جلّ ما يمكننا فعله هو الاحتكام إلىٰ قيم علمية. وإن لم يشاركنا بتلك القيم فالحوار منتهٍ. نعم، إن كان الشخص لا يقدّر الدليل، فما هو الدليل الذي ستقدّمه لإثبات وجوب تقديره له؟ إن كان الشخص لا يقدّر المنطق، فما الحجة المنطقية التي ستدلي بها لتبين له أهمية المنطق؟

نعم، لذا أعتقد بوجوب أن يبدو هذا الفصل بين الحقائق والقيم غريباً حقّاً بالنسبة لكم. أعني، ما الذي نعنيه حين نقول بقصور العلم عن أن يطبق علىٰ معظم القضايا المهمة في حياة البشر؟ حسناً، إننا نقول إنه عندما نتخلص من كل انحياز سابق فينا، وعندما، وعندما نعتمد كليّاً علىٰ الاستدلال البين والملاحظة الصادقة، وعندما، وعندما تكون الأمانة الفكرية في قمتها، حسناً، عندها لن يكون لتلك الجهود أي تطبيق مهم أيّاً كان نوعه بالنسبة للقضايا الأكثر أهمية في حياة البشر. وهذا المزاج بالضبط هو الذي لا يمكنك أن تكون فيه

لتجيب علىٰ الأسئلة الأكثر أهمية في حياة البشر. سيكون هذا غريباً جدّاً إن كان الوضع كذلك.

* * *

ويليام كريغ - الرد الأول...

تذكرون أني قلت في كلمتي الأولىٰ إنني سأدافع الليلة عن ادعاءين أساسيين، وكان أولهما: إن كان الرب موجوداً فسيوجد لدينا أساس قويم لوجود الواجبات والقيم الأخلاقية الموضوعية.

شرحت أولاً إن كان الرب موجوداً فسيكون أساس القيم الأخلاقية الموضوعية ممثلاً بصفات الرب نفسه، فهو يتصف أساساً بأنه رحيم عدل ودود كريم وما إلىٰ ذلك من الصفات[1].

---

(١) قد يُشكل كلام كريغ بهذا الإطلاق. فمثلاً قد يفهم البعض أن الإنسان مطالب بالتشبه بالله في جميع ما اتصف به من صفات. وقد وقع هذا من بعض العلماء والطوائف، ورد عليهم أئمة أهل السنة ومحققوهم وبينوا القول الحق في هذه المسألة التي قد تشتبه علىٰ البعض. قال ابن تيمية ﷺ: «ولهذا ضل من سلك سبيل هؤلاء فصار مقصودهم هو التشبه بالله واحتجوا بما يروون: «تخلقوا بأخلاق الله». وصنف أبو حامد شرح أسماء الله الحسنىٰ وضمنه التشبه بالله في كل اسم من أسمائه وسماه التخلق حتىٰ في اسمه الجبار والمتكبر والإله ونحو ذلك من الأسماء التي ثبت بالنص والإجماع أنها مختصة بالله وأنه ليس للعباد فيها نصيب كقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره: «يقول الله تعالىٰ: العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما عذبته». وسلك هذا المسلك ابن عربي وابن سبعين وغيرهما من ملاحدة الصوفية وصار ذلك مع ما ضموا إليه من البدع=

ومقابل هذا الكلام لا يملك الدكتور هاريس أي شيء يعد رفضاً، لكني أريد أن أبين نقطة قد تلتبس علىٰ البعض، ذكرها بقوله: إنْ لم يكن الدين صحيحاً، فإن كلمات الصواب والخطأ والخير والشر ستغدو بلا معنىٰ، لكني لا أوافقه في هذا، أي في خلطه بين علم وجود الأخلاق Moral ontology وعلم دلالات الألفاظ الأخلاقية Moral semantics، حيث يختص علم وجود الأخلاق بإجابة سؤال من مثل: «ما هو أساس القيم والواجبات الأخلاقية الموضوعية؟» في حين يختص علم دلالات الألفاظ الأخلاقية بإجابة سؤال مثل: «ما هو معنىٰ المصطلحات الأخلاقية؟» وأنا لا أقوم الليلة بتقديم أي ادعاء لدلالة الألفاظ بأن «الخير» يعني شيئًا من قبيل «ما أمر به الرب»، بل ينصب اهتمامي علىٰ وجود الأخلاق: ما هو أساس - أو الأرضية التي تقوم عليها- الواجبات والقيم الأخلاقية الموضوعية؟»[1].

=والإلحاد مُوقعاً لهم في الحلول والاتحاد. وقد أنكر المازري وغيره علىٰ أبي حامد ما ذكره في التخلق وبالغوا في النفي حتىٰ قالوا ليس لله اسم يتخلق به العبد. ولهذا عدل أبو الحكم بن برجان عن هذا اللفظ إلىٰ لفظ التعبد ولبسط الكلام علىٰ ذلك موضع آخر»، ثم قال ﷺ: «فإن من أسمائه وصفاته ما يحمد العبد علىٰ الاتصاف به كالعلم والرحمة والحكمة وغير ذلك ومنها ما يذم العبد علىٰ الاتصاف به كالإلهية والتجبر والتكبر». انظر: الصفدية (٢/ ٣٣٨).

قلتُ: ما يروىٰ من حديث: «تخلّقوا بأخلاق الله» فلا أصل له؛ يُنظر: السلسلة الضعيفة للألباني (٦/ ٣٤٦) رقم (٢٨٢٢). (ش).

(١) ما فعله كريغ هنا هو تبرئة نفسه من مغالطة منطقية اقترفها هاريس وهي مغالطة التقويل، أي تقويل كريغ ما لم يقُل، أو الإدلاء بما يوحي بذلك. (ش).

سأقدم توضيحاً لذلك بمثال، انظروا إلىٰ الضوء؛ فالضوء مجال مرئي محدد من الطيف الكهرومغناطيسي، لكن من الواضح أن ذلك ليس معنىٰ كلمة «الضوء»، فالناس عرفوا كيف يستخدمون كلمة «الضوء» قبل اكتشاف طبيعته الفيزيائية بزمن طويل، وأضيفُ أيضًا أنهم يعرفون بالتأكيد الفرق بين الضوء والظلمة قبل فهمهم لفيزياء الضوء بزمن طويل. وأقول الآن قياساً علىٰ ذلك، يمكننا أن نعرِف معنىٰ المصطلحات الأخلاقية مثل الخير والشر والصواب والخطأ ومعرفة الفرق بين الخير والشر دون أن ندرك أن الخير مؤسس وجوديّاً في الرب.

وهكذا فهذا هو الموقف الذي أدافع عنه الليلة، أن القيم الأخلاقية مؤسسة وجوديّاً في الرب.

ذكرت ثانياً أن واجباتنا الأخلاقية تعتمد علىٰ أوامر الرب، والتي هي انعكاس حتمي لطبيعته[1]، لكن الرد الوحيد الذي لمسته من الدكتور هاريس حول هذه النقطة هو إشارته للفظاعات الواردة في التوراة، لكنني أعتقد أن هذا خارج نطاق القضية التي نناقشها الليلة

---

(١) من المهم في هذا السياق أن ألفت نظر القارئ إلىٰ تقسيم نافع لأهل السنة لا أعلم أحداً من أهل الكتاب أو غيرهم سبقهم إليه، وهو التفريق بين إرادة الله القدرية وإرادة الله الشرعية. فليس كل ما أراده الله قدراً هو انعكاساً حتميّاً لطبيعته (بتعبير كريغ)؛ لأن الله أراد وجود الشر، ولكن لا يمكن أن نقول إن الشر انعكاس حتمي لطبيعة الله، لأنه يتبادر إلىٰ الذهن أن الشر متأصل في ذات الله، تعالىٰ عن ذلك. وقد ثبت في صحيح مسلم (١/ ٥٣٤): «والخير كله في يديك، والشر ليس إليك». (ش).

كليّـاً؛ فهنـاك الكثيـر مـن دارسـي التـشريعات الإلهيـة مـن غيـر اليهـود والمسيحيين الـذين لا يـأبهون بمـا يحتويـه الكتـاب المقـدس. فهـذا لا يشكل اعتراضـاً علىٰ نظرية التشريع الإلهي التي أدافع عنها هذه الليلة. والآن، إن كنـتَ مهتمّـاً بالأخلاقيـات الـواردة في الكتـاب المقـدس فسأنصحك بقوة بكتـاب بـول كوبـان Paul Copan الجديـد: «هـل الله وحش أخلاقي Is God a Moral Monster؟» والذي يختبر فيـه تلـك الفقـرات الـواردة في التـوراة في سـياق الـشرق الأدنـىٰ القـديم[١٥]. وأضمن لك أنها ستكون قراءة ممتعة توسع آفاق الفكر. لكن كـل هـذا غير ذي صلة بتاتـاً بمناظرتنا الليلة.

وهكـذا فلـم نـسمع حتـىٰ الآن أي اعـتراض علـىٰ التأسـيس الـديني للأخلاقيـات. إن كـان الـرب موجـوداً، فمـن البـيّن كمـا أعتقـد، بـل مـن الظاهر، أننا نملك أساسـاً متينـاً للقيم والواجبات الأخلاقية الموضوعية.

والآن، ماذا لو لـم يكن الرب موجوداً؟ هل يوجد، بادئ ذي بدء، أساس متين للقيم الأخلاقية الموضـوعية؟ وهنـا أيضـاً يقـول الـدكتور هاريس: «لسنا بحاجة للدين ليكون لدينا أخلاق عالمية مشتركة».

ذلك خلط بين المفاهيم مرة أخرىٰ، بـالطبع لا نحتـاج! تخيلـوا لـو أن النازيـة مـثلاً اسـتطاعت الفـوز بـالحرب العالميـة الثانيـة وأسـست لأخلاق عالمية، ليست قضيتنا هي **عالميـة الأخـلاق**، بـل **موضـوعيتها**. وأنا أصر علىٰ أنـه في حـال غيـاب الـرب فلـن يبقـىٰ أي سـبب أو تفـسير لوجود القيم الأخلاقية الموضوعية.

الآن، يقول الدكتور هاريس: «لكنّ بإمكاننا أن نتخيل وجود كائنات في أسوأ بؤس ممكن، ومن الواضح أنه خير للكائنات أن تكون في رخاء – أي إن رخاء الكائنات الواعية أمر خيِّر» حسناً بالطبع إنه كذلك، لكنّ هذا ليس هو السؤال، إذ نتفق، في ظل تكافؤ جميع الاعتبارات[1]، أن رخاء المخلوقات الواعية أمرٌ خيِّر. **لكن السؤال هو لو كان الإلحاد صحيحاً فما الذي يجعل من رخاء المخلوقات الواعية خيراً موضوعيّاً؟** ربما تحب المخلوقات الواعية أن تكون مزدهرة، لكن ليس هنالك أي سبب يقدمه الإلحاد لنعتقد بأن ازدهارها سيكون حقّاً خيراً موضوعيّاً.

الآن، أعتقد هنا أن الدكتور هاريس قد وقع في خطأ استخدام مصطلحات من مثل «الحسن والسيئ» و«الصواب والخطأ» بطرق مبهمة. فهو يستخدمها بغير معناها المعروف في علم الأخلاق. فمثلاً يقول بوجود حركات حسنة وأخرىٰ سيئة موضوعيّاً في لعبة الشطرنج[١٦]. من الواضح هنا أن ذلك ليس الاستخدام الأخلاقي لكلمتي الحسن والسيئ، فأنت تعني فقط أنها لا تعطي ميزة احتمالية فوز أو لا تنتج استراتيجية فوز. لكن ما فعلته هنا ليس شرّاً؛ وبالمثل في

(١) تعبير (...في ظل تكافؤ جميع الاعتبارات) أو (All things equal) يستخدم في الإنجليزية للحديث عن صحة أو خطأ مقولة ما في سياق الإطلاق والعموم أو النظر المجرد، بقطع النظر عن أي ملابسات خاصة يمكن أن ترجح كفة علىٰ كفة. وهو قيد مهم في الحديث عموماً، وعلم الجدل والمناظرة خصوصاً. (ش).

اللغة الإنكليزية المألوفة، يمكن استخدام كلمتي الحسن والسيئ في كثير من المواقف لتعني أشياء لا علاقة لها بالأخلاق، فمثلاً، نقول إن لجامعة نوتردام فريقاً «حسناً»، نأمل هنا أن يكون الفريق علىٰ خلق حسن، لكن هذا ليس ما يُسجل في سجلات نقاط الفوز والخسارة. ذلك معنىٰ آخر مختلف لكلمة «الحسن» (الخير). أو نقول: «تلك طريقة حسنة لتتسبب في قتل نفسك!» أو «تلك خطة لعب حسنة» أو «إشراقة الشمس تشعرني بأشياء حسنة» أو «ذلك طريق حسن نحو شرق لانسينغ» أو «ليس هنالك سبب حسن لفعل ذلك» أو «إنها في صحة حسنة». كل تلك العبارات هي استخدامات لا تتعلق بالأخلاق لكلمة «حسن» (خير). ومقارنة الدكتور هاريس بين الحياة الحسنة والحياة السيئة ليست مقارنة أخلاقيةً بين الحياة الخيرة أخلاقيّاً والحياة الآثمة أخلاقيّاً، بل هي مقارنة بين الحياة السعيدة والحياة البائسة، وليس هنالك أي سبب للمساواة بين «السرور والبؤس» و«الخير والشر»، وخصوصاً ضمن النظرة الإلحادية. وهكذا فلا يوجد مطلقاً أي سبب في الرؤية الإلحادية يدفع للاعتقاد بأن ازدهار الكائنات الواعية هو خير موضوعي.

لكن علىٰ الدكتور هاريس أن يدافع عن ادعاء أكثر غُلوّاً من ذلك: حيث ادعىٰ تطابق سمة **أن تكون خيراً** مع سمة **ازدهار الكائن**. ولم يقدم أي دفاع عن هذا التعريف المُفرط في المغالاة. فالواقع أن لدينا حجة قاضية ضد ذلك التطابق. تحملوا مني الشرح التقني هنا.

ففي الصفحة قبل الأخيرة من كتاب الدكتور هاريس نجده يقدم اعترافاً معبّراً، بأنه إن كان بإمكان مرتكبي الاغتصاب والكذب والسرقة أن يشعروا بالسعادة تماماً كالناس الخيرين، عندها لن يبقىٰ أمامنا أي «مشهد أخلاقي» كما سمىٰ كتابه[١٧]. لكن سنكون أمام مُتَّصَل(١) من الرخاء يمكن أن يبلغ قممه الأشخاص الخيِّرون الجيدون والسيئون الأشرار علىٰ حد سواء.

المثير للاهتمام في هذا أن الدكتور هاريس قبل تلك الصفحة من الكتاب يشرح أن قرابة ثلاثة ملايين أمريكي مضطربون عقليّاً[١٨] وهذا يعني أنهم لا يهتمون بالحالة العقلية للآخرين. بل يستمتعون بإلحاق المعاناة بالآخرين. لكن ذلك يتضمن إمكانية أن نتصور وجود عالم يكون فيه مُتَّصَلُ الرخاء البشري ليس مشهداً أخلاقيّاً. يمكن أن يعتلي الأشرار قمم الرخاء لكن ذلك يعني أن متَّصل الرخاء لا يتطابق في العالم الواقعي مع المشهد الأخلاقي، لأن التطابق علاقة ضرورية فلا يوجد عالم ممكن تكون فيه الكينونة (أ) غير متطابقة مع الكينونة (أ). لذا فإن كان هناك أي إمكانية لوجود عالم تكون فيه (ب) غير متطابقة مع (ب) فإن (أ) ليست في الواقع (ب).

الآن ونظراً لإمكانية عدم تطابق الخيرية الأخلاقية مع الرخاء البشري فهذا يقتضي بالضرورة أنهما ليسا شيئاً واحداً كما حاول

---

(١) سلسلة من الأشياء المرتبة، كل واحدة تشبه تماماً تقريباً التي بجوارها، لكن الأولىٰ والأخيرة مختلفتان تماماً. (المترجم).

الدكتور هاريس أن يؤكد في كتابه.

ليس شائعاً في الفلسفة أن تحصل علىٰ حجة قاضية ضد موقف ما، لكن أعتقد أننا حصلنا علىٰ واحدة هنا؛ فإذا اتفقنا علىٰ أنه من الممكن ألّا يتطابق متَّصَل الرخاء البشري مع المشهد الأخلاقي، فإن رؤية الدكتور هاريس تغدو غير متماسكة منطقيّاً.

قلت ذلك كله لتأكيد فكرتي المبدئية بعدم وجود أي سبب في الإلحاد لتعريف رخاء الكائنات الواعية بالخيرية الأخلاقية، فالإلحاد عاجز عن تفسير حقيقة – الحقيقة الموضوعية– القيم الأخلاقية.

ماذا الآن عن الواجبات الأخلاقية الموضوعية؟ جادلت بداية انطلاقاً من التمييز بين مصطلحي (يكون) و(يجب أن يكون) أنه لا أساس في الإلحاد للتفكير بأن علينا واجبات أخلاقية. وهنا يقول الدكتور هاريس: «إن كان علينا واجب أخلاقي لفعل شيء ما فعلينا تجنب أسوأ بؤس ممكن». لكن السؤال مقدم علىٰ جواب الشرط أصلاً، أقصد « إن كان علينا واجب أخلاقي لفعل شيء ما». ما أناقشه هنا هو أنني لا أرىٰ في الإلحاد أي سبب لأفكر بأن عليّ واجباً أخلاقيّاً لفعل أي شيء.

تنشأ الواجبات والممنوعات استجابة لأوامر سلطة قادرة. فمثلاً، إن أمرك رجل شرطة أن تركن سيارتك إلىٰ جانب الطريق، فعندها وبسبب سلطته وصفته، فإن عليك إلزاماً تشريعيّاً لركن سيارتك. لكن إن أتىٰ أحد الغرباء وقال لك أن تركن سيارتك جانب

الطريق، فلن يكون عليك أي إلزام تشريعي لفعل ذلك. الآن، ما هي السلطة الموجودة التي تطلق الأوامر والنواهي بغياب الرب؟ لا يوجد أي سلطة من هذا النوع في الإلحاد، وبالتالي ليس هناك أي أوامر أخلاقية يجب علينا طاعتها. وبتغييب الرب لن يوجد أي نوع من الواجبات أو المحرمات الأخلاقية التي تميز حياتنا. وتحديداً، لسنا ملزمين أخلاقيّاً بتعزيز ازدهار الكائنات الواعية. لذا يبدو لي هذا التمييز بين (يكون/ يجب أن يكون) داحضاً لموقف الدكتور هاريس، وهو ما قال به كثير من نقاد كتاب «المشهد الأخلاقي».

لكن ثانياً، إن المشكلة الأسوأ من تلك هي أن (الوجوب يقتضي الاستطاعة). وبغياب القدرة على القيام بفعل مغاير فلا وجود لمسؤولية أخلاقية. ففي غياب حرية الاختيار لن نكون سوى دمى أو آلات كهربائية كيميائية، وليس على الدمى مسؤوليات أخلاقية. فالآلات ليست فاعلاً يتصف بالأخلاق. لكن الدكتور هاريس يرى أنه لا وجود لحرية الاختيار لا بالمفهوم الليبرالي التحرري ولا وفق مفهوم المذهب التوافقي [اتفاق الحتمية مع حرية الإرادة Compatibilism]. وبالتالي فليس هنالك مسؤولية أخلاقية. ولذا لا توجد أي احتمالية لوجود الواجبات الأخلاقية من وجهة نظره.

ولذلك، في الوقت نفسه الذي يمكنني فيه تأكيد وتقدير ما أكده الدكتور هاريس من موضوعية القيم والواجبات الأخلاقية، إلا أنني أجد في نهاية المطاف أن رؤيته الكونية الفلسفية لا تمنح أساساً لتلك

الكينونات التي يريد كلانا أن يؤكد وجودها، ولكن إن كان الرب موجوداً فمن الواضح أنه لدينا أساس متين للقيم الأخلاقية الموضوعية والواجبات الأخلاقية الموضوعية، ولكن لو لم يكن الرب موجوداً، أي إن كان الإلحاد هو الصحيح، فلن يكون هناك أي أساس لتأكيد وجود القيم الأخلاقية الموضوعية؛ ولن يوجد أساس للواجبات الأخلاقية الموضوعية لأنه لا وجود لمن يشرّع القانون الأخلاقي، ولا وجود لحرية الاختيار.

ويبدو لي بالتالي أن الإلحاد ببساطة محروم من الأسس الوجودية الكافية لإقامة بنيان الحياة الأخلاقية.

* * *

سام هاريس - الرد الأول...

حسناً، كان ذلك ممتعاً حقّاً، اسألوا أنفسكم، ما العيب في أن نقضي في الجحيم إلىٰ الأبد؟ حسناً، لقد أخبروني أن الجو هناك حار جدّاً. لا يقدم د. كريغ وجهة نظر بديلة للأخلاق. حسناً، كل فكرة المسيحية - أو كما يصورونها - هي الراحة الأبدية لروح الإنسان. الآن، وبكل سرور، لا يوجد مطلقاً أي دليل علىٰ وجود الجحيم الذي تصفه المسيحية. أظن أن علينا النظر في عواقب الإيمان بهذا الإطار الفكري الديني في هذا العالم، وما هي تلك الأسانيد الحقيقية التي تبنىٰ عليها الأخلاق.

حسناً، يموت تسعة ملايين طفل سنويّاً قبل أن يبلغوا سن الخامسة. حسناً، خذ صورة إثر صورة... التسونامي الآسيوي كالذي رأيناه عام ٢٠٠٤ والذي قتل ربع مليون إنسان. أحد تلك الحوادث تقتل كل عشرة أيام نفس عدد الأطفال الذين يموتون يوميّاً تحت سن الخامسة. حسناً، لدينا ٢٤٠٠٠ طفل منهم يموتون يوميّاً، وبالتالي ألفٌ بالساعة، أو ١٧ تقريباً بالدقيقة. ويعني ذلك علىٰ الأرجح موت بعض الأطفال برعب ومعاناة قبل أن أصل إلىٰ نهاية جملتي[1]. حسناً،

---

(١) لاحظ جيداً أسلوب «الإغراق المتوالي» الذي يمارسه هاريس لإرهاق عاطفة=

فكروا في آباء هؤلاء الأطفال، فكروا في حقيقة أن معظم هؤلاء الرجال والنساء يؤمنون بالرب ويصلون في هذه اللحظة لأولادهم أن يحفظهم الله. لكن أحداً لن يستجيب دعاءهم. حسنـًا، لكن وفقـًا للدكتور كريغ فإن كل ذلك جزء من خطة الإله. أيُّ رب ذاك الذي يسمح بمعاناة ملايين الأطفال حتىٰ الموت بهذه الطريقة، وبحزن آبائهم بهذه الطريقة؛ إما أنه عاجز عن فعل شيء حيال ذلك، أو أنه لا يهتم بفعل شيء. وبالتالي هو إما عاجز أو شرير[1].

والأسوأ من ذلك أنه وفق نظرة الدكتور كريغ، فإن معظم هؤلاء الناس – العديد منهم بالتأكيد- سيذهبون للجحيم لأنهم توجهوا بصلاتهم إلىٰ الإله الخطأ. فكروا في ذلك. حسنـًا، لم يكن ذلك خطأهم، فقد ولدوا في ثقافة خطأ، تعلموا منها الدين الخطأ ففاتهم الوحي. حسنـًا، هناك ١.٢ مليار إنسان في الهند هذه اللحظة، ومعظمهم من الهندوس، أي إن معظمهم مشركون يؤمنون بتعدد الآلهة Polytheists. في عالم الدكتور كريغ مهما يكن هؤلاء خيرين فمصيرهم بائس. إن كنت تصلي للإله هانومان Hanuman (الإله

=المستمع، والحيدة به عن محل النزاع الحقيقي. (ش).

(١) هناك احتمالات أخرىٰ لا يود هاريس ذكرها؛ ومنها احتمال أن الله ليس بعاجز ولا شرير – سبحانه، تنزلاً مع تعبيره – وإنما قادر حكيم، والقدرة إذا اقترنت بالحكمة انتفىٰ إيراد الشر، ولكن هاريس يصدق عليه قوله تعالىٰ: ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ (آل عمران: ١٥٤)، وقوله: ﴿ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ (الفتح: ٦)، فسوء ظنه يقود مراده. (ش).

القرد عند الهندوس) فمصيرك الهلاك. حسناً، ستعذب في الجحيم إلىٰ الأبد. الآن، هل هناك أي دليل مهما كان ضئيلاً علىٰ هذا؟ لا، إنها مذكورة فقط فيما قاله مرقص٩ ومتىٰ ١٣ ورؤيا يوحنا ١٤. حسناً، ربما ستتذكر من فيلم ملك الخواتم The Lord of the Rings أنه عندما يموت العفاريت Elves يذهبون إلىٰ فالانور Valanor، ولكن يمكن لهم الولادة من جديد في الأرض الوسطىٰ، وأقول ذلك لغرض المقارنة فقط لا غير"[1].

حسناً، هكذا خلق الرب الانعزال الثقافي للهندوس، حسناً، وصمم ظرف موتهم جاهلين بالوحي، ثم خلق عقوبة علىٰ ذلك الجهل[2]، وهي الخلود في العذاب الأليم في النار. حسناً، من جهة أخرىٰ، في نظر الدكتور كريغ، فإن القاتل المتسلسل في أمريكا الذي قضىٰ حياته في اغتصاب وتعذيب الأطفال لا يحتاج إلا أن يعود إلىٰ

---

(١) الواقع أن هذا تشتيت لا غير!. (ش)

(٢) من المقرر في دين الإسلام أن المحاسبة علىٰ التكليف معلقة بالإعذار وقيام الحجة؛ أما من لم تقم عليهم الحجة فلا يعذبون؛ وهو القول الذي لا ينبغي أن يصح غيره، نصره أحمد بن عبد الحليم المشهور بابن تيمية ومحمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية وعبد الرحمن السعدي ومحمد بن عثيمين وغيرهم من علماء السنة قديماً وحديثاً. قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء: ١٥)، وقال: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ (النساء: ١٦٥)، إلىٰ غيرها من الأدلة الدالة علىٰ عدم المؤاخذة قبل قيام الحجة. (ش).

الرب يسوع علىٰ خشبة الإعدام وبعد وجبة أخيرة من الدجاج المشوي سيقضي حياته في النعيم الأبدي بعد الموت. حسناً، يجب أن يبقىٰ أمامنا شيء في غاية الوضوح: هذه النظرة للحياة ليس لها أي شيء يتصل بالمساءلة الأخلاقية.

حسناً، لاحظوا رجاء المعايير المزدوجة عند أناس أمثال الدكتور كريغ حينما يبرئون الرب من كل هذه الشرور، حسناً. أخبَرونا أن الرب حنون ولطيف وعادل وأن ذاته خيّرة. لكن عندما يشير أحد ما مثلي للأدلة المقنعة البارزة للعيان بأن الرب قاس وظالم لأنه أحل المآسي بالأشخاص الأبرياء، وهي بكثرة ومقدار ستحرج أشد مرضىٰ النفوس طموحاً، يخبروننا أن «الرب غامض»، حسناً. و«من يمكنه فهم مشيئة الله؟» حسناً، ومع ذلك فإن هذا «الفهم البشري» لمشيئة الله هو بالضبط ما يؤسس المؤمنون عليه نظرتهم لخيرية الرب في المقام الأول. تعلمون، إذا حصل شيء جيد للمسيحي، شعر بالبركة أثناء الصلاة أو رأىٰ تغيراً إيجابيّاً في حياته، فيخبروننا أن الرب خيّر. لكن عندما يُنزَع عشرات الأطفال من أحضان والديهم ليلاقوا مصير الغرق، يخبروننا أن الرب غامض، حسناً. هكذا تلعب كرة المضرب دون أن تعلّق شبكة في المنتصف.

أريد أن أقول أيضاً، إن الشخص الذكي الذي يتحدث بهذه الطريقة ليس مُضجراً فقط، بل بغيضٌ أخلاقيّاً، حسناً، هذا النمط من الإيمان هو المثال النموذجي للنرجسية Narcissism. «الرب يحبني،

ألا تعلم؟ لقد عافاني من الأكزيما، يجعلني أشعر بالخير الكثير عندما أغني في الكنيسة، وعندما فقدنا كل أمل وجدنا رجلاً مصرفيّاً مستعداً لتخفيض الرهن العقاري عن أمي»[1].

حسناً، إن علمنا كل الخير، كل ذلك الخير الذي لم يحققه ربكم في حياة الآخرين، والمآسي التي تنزل ببعض الأطفال العاجزين في هذه اللحظة، فسيكون هذا النوع من الإيمان فحشاً. حسناً، إن التفكير بهذه الطريقة لَهُوَ تجنب لاستخدام المنطق بصدق، أو إهمال الاعتناء الكافي بمعاناة البشر الآخرين. وإن كان الرب خيراً وودوداً وعادلاً ولطيفاً وأراد أن يرشدنا أخلاقيّاً بكتابه، فلماذا يمنحنا كتاباً يشرّع العبودية؟ لِمَ ينزل علينا كتاباً يأمرنا بقتل الآخرين من أجل جرائم تخيلية كالسحر. ويوجد بالطبع وسيلة تمنع هذه الأسئلة من

---

(١) هاريس واحد من مئات الحائدين عن فهم طبيعة العلاقة بين الخالق وخلقه؛ وهذا راجع بشكل أساسي في نظري إلىٰ افتقار الإرث المسيحي إلىٰ تكامل المحكمات الشرعية التي نطق بها القرآن حول هذه القضية. فالعلاقة علاقة ابتلاء وامتحان، وليست علاقة خدمات ومزايا وتسهيلات يقدمها الخالق للمخلوق حسب طلبه. قال الله تعالىٰ: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ (العلق: ٦ - ٧)، وقال: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ (الأنبياء: ٣٥)، وقال: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ (الزمر: ٨) ...الآية؛ بل إن أبلغ آية تصف حال هاريس وأمثاله في هذا السياق هي قوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (الحج: ١١)، فتأمّل. (ش).

التأثير عميقـاً بنا، حسـناً. وفقـاً لنظريـة الـدكتور كريـغ حـول الأوامـر الإلهية Divine Command theory، فإن الـرب غيـر مقيـد بواجبـات أخلاقية؛ بل لا يجب علىٰ الـرب أن يكـون خيـراً. كـل مـا يـأمر بـه فهـو خير، ولذا عندما يأمر الإسرائيليين بقتـل العمـاليق فـإن ذلـك التـصرف سيصبح جوهره من الخير؛ لأن الرب أمر بذلك[1].

حسـناً، هـذا مـا يعرضـه علينـا، وأنـا مـسرور لكونـه طـرح قـضية المختلين عقليّـاً، لأنه يعرض علينا هنا موقفـاً أخلاقيّـاً معتلّاً عقليّـاً ونفسيّـاً. وهو موقف معتل نفسيّاً لأنـه قـائم كليّـاً علىٰ الـوهم، فلـيس هناك سبب للإيمان بأننا نحيا في كون يحكمـه الـوحش يهـوه المختفـي علىٰ الأنظار. بل إن ذلك الموقف يعد اختلالاً عقليّـاً لأنه انفصام كلي عن رخاء البشر. فهـو يـسوغ بكـل سـهولة قتـل الأطفـال. حـسناً، فكـر فقط هذه اللحظة في المسلمين الذين يفجرون أنفـسهم، إنهـم مقتنعـون بأنهم ينفذون مشيئة الله. لا يوجد بكل تأكيد ما يمكن أن يعترض عليـه الدكتور كريغ ضد فعلهـم مـستخدمـاً المـصطلحات الأخلاقيـة، بعيـداً عن ادعائه الشخصي المبني علىٰ الإيمان بأنهم يعبـدون الـرب الخطـأ. فلو كانوا يعبدون الرب الصواب، سيكون ما يفعلونه خيراً، وفق نظرية

---

(١) ما لا يود قوله هاريس هنا هو «لأن الرب أعلم بذلك»: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٦)، هاريس يريد أن الله «أمر فقط»، هكذا بلا علم ولا حكمة؛ بل إنه يشتاط غضباً من نسبة الحكمة إلىٰ أمر الله، ولن يهدأ حتىٰ يُصبح علمه مكافئاً لعلم خالقه، مجانساً له في الإحاطة، وهذا غاية التعنّت. (ش).

الأوامر الإلهية.

ومن الواضح أني لا أقول إن كل المؤمنين أمثال الدكتور كريغ معتلون عقليّاً أو مصابون بالذهان. لكن هذا يمثل بالنسبة لي الرعب الحقيقي الناشئ من الدين. فهو يسمح لمليارات البشر السليمي العقل والخلوقين أن يؤمنوا بما لا يجدر أن يؤمن به إلا المعتوهون. إن استيقظت غداً صباحاً معتقداً أنك لو قلت بضع كلمات لاتينية فوق فطيرتك فستنقلب إلىٰ قطعة من جسم إلفيس بريسلي Elvis Presley، فإنك قد فقدت عقلك حينها بكل تأكيد. لكن إن فكرت بالمثل تقريباً بخصوص قطعة البسكويت وجسد المسيح، فأنت عندها مجرد مسيحي كاثوليكي!

لست أول شخص يلاحظ أنه إله ودود من نمط غريب جدّاً يجعل الخلاص معتمداً علىٰ الإيمان به اعتماداً علىٰ دليل سيئ. حسناً، إنها... أقصد... لو عشت قبل ٢٠٠٠ عام فهناك دليل وافر، أقصد، لقد كان الرب يقوم بالمعجزات. لكن من الواضح أنه ملّ من مساعدتنا. ولذلك فقد ورِثنا كلنا الآن هذا الحمل الثقيل من عدم المقبولية العقائدية. والجهد المبذول لتسوية ذلك بما نعلمه اليوم عن الكون وحول الأصل البشري لتأليف الكتاب المقدس يزداد صعوبة كل يوم، ولا يوصي الدكتور كريغ بالإيمان فقط بالرب العام، بل يوصي بالإيمان بالرب الأب ويسوع الابن. فالمسيحية في نظر الدكتور كريغ هي الثروة الأخلاقية الحقيقية للعالم.

حسناً، أكره أن أبلغكم بهذا هنا في نوتردام، لكن المسيحية هي طائفة دينية لعبادة التضحية بالإنسان. المسيحية ليست ديناً ينكر التضحية البشرية[1]. إنها دين يحتفي بالتضحية بإنسان واحد وكأنها كانت مؤثرة. «الرب أحب الكون فأعطاه ابنه الوحيد» يوحنا ٣: ١٦. حسناً، الفكرة أن يسوع عانىٰ عملية الصلب Crucifixion بحيث لا تبقىٰ حاجة لأحد أن يعاني من الجحيم - عدا أولئك المليارات الذين يعيشون في الهند والمليارات الأخرىٰ علىٰ مر التاريخ[2]. حسناً، هذه عقيدة منحرفة، عقيدة منحرفة تمثل تاريخاً وضيعاً للجهل العلمي والبربرية الدينية. لقد انحدرنا من أناس اعتادوا دفن الأطفال تحت أساسات الأبنية الجديدة كقرابين لآلهتهم المتخيلة. حسناً، فكروا في هذا الأمر فقط، يوجد في العديد من المجتمعات أناس يدفنون أطفالاً في حفر أساسات البناء - بشر مثلنا - ظنّاً منهم أن ذلك يمنع كائنات غيبية من هدم أبنيتهم. هذا النوع من الناس هم الذين كتبوا الكتاب المقدس. حسناً، إن وُجد إطار أخلاقي أقل أخلاقية مما يطرحه الدكتور كريغ فأنا لم أسمع به من قبل.

***

---

(١) لهاريس كتاب مشهور باسم «رسالة إلىٰ أمة مسيحية». (ش).

(٢) لم أقم بالإكثار من التعليق علىٰ ما مضىٰ إلىٰ الآن لأن مشكلة هاريس مع المسيحية بشكل خاص، ناهيك عن أنه إلىٰ الآن لم يتعرض إطلاقاً لمحل النزاع أصلاً. وسوف يشير ويليام كريغ إلىٰ هذا بعد قليل. ومع ذلك لا ننازعه في أن المسيحية وغيرها من الأديان الوثنية مثقلة بقضايا عقدية مشكلة. (ش).

ويليام كريغ – الرد الثاني...

الإطار الأخلاقي الأقل أخلاقية هو الإلحاد! الإلحاد ليس لديه أرضية للقيم الأخلاقية الموضوعية أو الواجبات الأخلاقية. واللافت للاهتمام أنني أصبت بخيبة أمل لأنه في تلك الكلمة الأخيرة لم أسمع نقاشاً ذا قيمة لحجتي الجوهرية الثانية التي طرحتها ضد نظرة الدكتور هاريس. تذكروا أننا تحدثنا عن **مشكلة القيمة**. لقد قدمت ما أعتبره حجة قاضية لأثبت أن المشهد الأخلاقي لا يطابق مُتَّصَل (Continuum)[1] ازدهار الإنسان. وقد تحدثنا عن الواجبات الأخلاقية الموضوعية، والتمييز بين (يكون) و(يجب)، ومشكلة أن (الوجوب يقتضي الاستطاعة). لم أتلق رداً على أي من هذا. لذا إن أردت حقّاً نظاماً أخلاقيّاً بائساً، فعليك بالإلحاد! إذ ما من أساس للقيم والواجبات الأخلاقية الموضوعية هناك.

الآن ماذا عن الإيمان بالله؟ هل ما لديه أفضل من الإلحاد؟ حسناً، في الكلمة الأخيرة، سمعنا بعض الردود الهجومية على حجتي

(١) سبق تعريفه من قبل المترجم. (ش).

الأولىٰ، القائلة بأن وجود الرب يوفر أساساً متيناً للأخلاق. لسوء الحظ، لقد بدت لي في معظمها مغالطات (رنجات حمراء). الرنجة الحمراء هي سمكة بائتة ذات رائحة كريهة.

تُسحب علىٰ طول طريق الكلاب البوليسية لتصرف انتباهها عن ضالتها الحقيقية، فتضللها وتنصرف لملاحقة السمكة الميتة. ولن أسمح بتضليلي بالرنجات الحمراء[1] التي عرضت في تلك الكلمة!

علىٰ سبيل المثال، ورداً علىٰ دعواي بأن وجود الرب يقتضي بالضرورة وجود القيم الأخلاقية الموضوعية، سمعنا بأنني لم أقدم بديلاً لوجهة نظره، لأن هدف الإيمان بالله هو تجنب نار جهنم. وبكل أمانة إن هذا يبين ببساطة الفهم القاصر عند سام هاريس للمسيحية. أنت لا تؤمن بوجود الرب لمجرد تجنب دخول الجحيم، فالإيمان بالله ليس نوعاً من التأمين ضد الحريق. أنت تؤمن بالرب لأن الرب، بكونه الخير المطلق، هو الخليق بالتعبد والمحبة فهو الخير نفسه، الذي يُطلب لذاته لا لشيء آخر[2]. وهكذا فتحقيق وجود الإنسان

---

(١) مغالطة الرنجة الحمراء أو: مغالطة التضليل، أو ذر الرماد في العيون. (ش).

(٢) للإمام العز بن عبد السلام في قواعد الأحكام (١/ ٣٢) بحث نافع يتصل بما ذكره كريغ؛ ومما قال فيه: «وأما التفاوت في الأحوال فظاهر فإن مرتبة التعظيم والإجلال أكمل من مرتبة الخوف والرجاء، لأن الإعظام والإجلال صدرا عن ملاحظة الذات والصفات فكان لهما شرفان: أحدهما من مصدرهما، والثاني من تعلقهما. وأما الخوف والرجاء فإن الخوف صدر عن ملاحظة العقوبات والرجاء صدر عن ملاحظة المثوبات، وتعلقا بما صدرا عنه فانحطا عن التعظيم والإجلال بمرتبتين،=

سيوجد في العلاقة مع الرب. والله حقيق بالعبادة بسبب كينونته وقيمته الأخلاقية. ولا يتعلق الأمر بتاتاً باجتناب النار[1]، ولا بتعزيز رفاهيتك الخاصة.

ويتابع ردوده الهجومية قائلاً: «ولكن ليس هناك سبب وجيه للإيمان بوجود ذات كهذه، انظر إلىٰ مشكلة الشر وانظر إلىٰ مشكلة غير المبَشَّرين بالمسيحية Unevangelized» ليس لأي من المشكلتين كما شرحت في افتتاح كلمتي أي علاقة بمناظرة الليلة لأنني لا أجادل لأثبت وجود الرب. ربما يكون هاريس علىٰ حق، وقد يصمد هذان الاعتراضان ضد المسيحية والإيمان عموماً، ويتعذر الإجابة عنهما. ولكن لن يؤثرا علىٰ أيٍّ من الحجتين اللتين قدمتهما: إن كان الرب موجوداً، فسيكون لدينا أساس متين للقيم والواجبات الأخلاقية

=وكذلك رتبة المحبة الصادرة عن ملاحظة الإنعام والأفضال منحطة عن رتبة المحبة الصادرة عن ملاحظة الكمال والجمال». وقد توسع أكثر مما ها هنا فيُنظر هنالك. (ش).

(١) إنكار أهمية الثواب والعقاب في التعبد لله مُشكل جداً. لابن قيم الجوزية رحمه الله كلام جيد عن القوم الذين يدّعون أنهم يريدون الله ولا يريدون ثوابه أو يخشون عقابه؛ قال فيه: «والقسم الرابع - وهو محال -: أن يريد الله، ولا يريد منه. فهذا هو الذي يزعم هؤلاء أنه مطلوبهم، وأن من لم يصل إليه ففي سيره علة، وأن العارف ينتهي إلىٰ هذا المقام. وهو أن يكون الله مراده، ولا يريد منه شيئاً. كما يحكىٰ عن أبي يزيد أنه قال: قيل لي: ما تريد؟ فقلت: أريد أن لا أريد. وهذا في التحقيق عين المحال الممتنع: عقلاً وفطرة، وحسّاً وشرعاً». راجع للتوسع: مدارج السالكين (٢/ ٨١). (ش).

الموضوعية، وإن لم يكن الرب موجوداً، فلن يكون لدينا أساس للقيم والواجبات الأخلاقية الموضوعية. لذلك ما جاء به ليس إلا مغالطات من جنس سمكات الرنجة الحمراء.

لقد كتبت عن هاتين المشكلتين، مشكلة الشر ومشكلة غير المبَشَّرين بالمسيحية، ويمكنكم إيجاد الكثير مما كتبته علىٰ موقعنا www.reasonablefaith.org. فإن كنتم مهتمين انطلقوا واطلعوا عليه. أو تحدث إلىٰ أحد أساتذتك في الفلسفة، كما اقترح مايكل ريا[1]، حيث كتب مايكل باستفاضة عن مشكلة الشر، وأنا متيقن أنه سيشعر برغبة في أن يحاورك حول هذه الأشياء.

ثانيـاً أريد القول، لاحظوا أن الشر في الحقيقة يثبت وجود الرب، لأن الرب لو لم يكن موجوداً، فإن القيم والواجبات الأخلاقية الموضوعية لن تكون موجودة! وإذا وجد الشر، فذلك يقتضي أن القيم والواجبات الأخلاقية موجودة، وبالتحديد لأن بعض الأشياء شريرة. إذاً فالشر يثبت وجود الرب فعليّاً، لأنه بغياب الرب لن يوجد الشر والخير كما هما الآن[2]. وهكذا لا يمكنك أن تصر علىٰ طرح مشكلة الشر وتوافق علىٰ زعمي بأن الرب لو لم يكن موجوداً فلن

---

(١) Michael Rea (المترجم).

(٢) لطالما أشرتُ إلىٰ أن الإلحاد نفسه يفقد مغزاه في هذه الحالة. «سيظلُّ الإلحاد حالة فارغة، ومفردة معطّلة عن أية دلالة، ما لم يكن هناك ما يمكنُ الإلحاد به». ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان، دار نماء، ص (١٩٣). (ش).

يكون هناك أساس للقيم والواجبات الأخلاقية الموضوعية في آن معـاً لأن وجود الشر في حد ذاته سيكون حجة تثبت وجود الرب.

لاحظـوا أن د. هـاريس لـيس لديـه أسـاس أخلاقـي ليقـول بـأن المعتقدات المسيحية بغيضة أخلاقيّاً، لأنه يفتقـد إلىٰ الأسـاس الـذي يبني عليه حكمه هـذا. لـو كـان الإلحـاد صـحيحاً، فمـا هـو الأسـاس الموضوعي للجزم بأن نظرة ما بغيضة وأخرىٰ ليست كـذلك؟ لأنـه لا يوجد ببساطة أساس لأحكام كهذه. لذا إن كان يرغب في إجراء مناظرة حـول الإيمـان بـالله فمـن دواعـي سـروري المـشاركة معـه في منـاظرة، ولكن هذا ليس موضوع مناظرة الليلة.

ويقول أيضـاً، إن الإيمان بهذه الأشياء (اعـتلال نفسي)، إن هـذه الملاحظة غبية بقدر ما هي مهينة. إنه لمن التفاهة بمكان الظن بأن بيتر فـان إنـويجن[1] الأسـتاذ هنـا في جامعـة نـوتردام معتـل نفـسيّاً، أو أن شخصـاً كالدكتور توم فلينت[2]، وهو مـن أفاضـل الرجـال المـسيحيين الذين قابلتهم في حياتي، معتل نفسيّاً. حسنـاً، هـذه تعتـبر شـتيمة تحـت الحزام!

إذاً يبدو لي أننا لم نحصل علىٰ أي تفنيد لوجهة النظر القائلة بأنـه إن كـان الـرب موجـوداً، فـإن ذاتـه وصـفاته تحـتم وجـود قـيم أخلاقيـة موضوعية.

---

(١) Peter Van Inwagen (المترجم).

(٢) Tom Flint (المترجم).

فماذا عن الواجبات الأخلاقية الموضوعية؟ شرحت بهذا الصدد أن أوامر الرب لا بد أن تكون متسقة مع طبيعته. لكن الدكتور هاريس تابع الإصرار علىٰ نقطته: «أوه، لكن الكتاب المقدس يدعم العبودية.» سأحيلكم مرة أخرىٰ إلىٰ كتاب البروفيسور كوبان[١٩]، الذي يبين أن هذا تصوير مشوه جداً لإسرائيل القديمة، التي لم تشجع علىٰ العبودية كما نفهمها، في ضوء تجربة الجنوب الأمريكي.

ولكن نؤكد مرة أخرىٰ أن هذا ليس موضوعنا، لأنني لا أدافع عن الكتاب المقدس في هذه الليلة! فما أقوله بالنسبة للمؤمن - سواء أكان يهودياً أم مسيحياً أم ربانياً أم هندوسياً، ستكون الواجبات الأخلاقية متضمنة في أوامر الرب، وأساسها موجود في طبيعته.

يقول: «ولكن ماذا عن أشخاص كطالبان، الذين يقولون بأن الرب أمرهم بارتكاب أعمال وحشية معينة؟» فسأقول الشيء ذاته الذي يقوله الدكتور هاريس لطالبان، سأقول بالتحديد: «إن الرب لم يأمركم بهذه الأفعال». فهذا بالضبط ما كان الدكتور هاريس سيقوله. وهو السبب ذاته الذي يعتقد أنه يسوغ عدم إيمانه بوجود الرب، ولكني أقول ذلك لأنني أعتقد أن طالبان يعبدون الرب الخطأ[١] إذ إن

(١) نخالف بطبيعة الحال هذه الدعوىٰ، وقد كان بإمكان كريغ أن يلتمس مخرجاً بقليل من الإنصاف لو أراد، كأن يقول: إنهم أخطأوا في فهم مراد الله، أو نحو ذلك؛ وأيضاً علىٰ التسليم بأن جميع ما وقع من طالبان وحشي سلبي شرير، وإلا فقتال طالبان للمحتل الأمريكي وعملائه مثلاً لا يمكن أن نعتبره وحشياً بحال، بل هو=

الرب في الحقيقة لم يأمرهم بارتكاب هذه الفظاعات، والحقيقة أن الرب لا يصدر إلا أوامر متسقة مع طبيعته الأخلاقية، والتي لديه مبررات أخلاقية كافية لها.

إذاً، لا أظن أن حجتي الأولىٰ محل جدال كبير هذه الليلة. أعتقد أن من الواضح إن كان الرب موجوداً، فإن القيم الأخلاقية الموضوعية المستقلة عن رأي الإنسان ستكون موجودة؛ فأصلها من طبيعة الرب؛ وستوجد الواجبات الأخلاقية الموضوعية كذلك، إذا كان الرب موجوداً، لأن واجباتنا تنتج عن استجابتنا للأوامر الأخلاقية التي يصدرها الرب لنا.

فالجدال الحقيقي هو حول الحجة الثانية: هل يمكن للإلحاد أن يوفر أساساً للقيم والواجبات الأخلاقية الموضوعية؟ وأظن أننا رأينا أسباباً كافية لنعتقد بأن الإلحاد عاجز عن ذلك.

***

=حق طبيعي شرعي. فوق ذلك نخالفه ونعتقد أن إلهنا وإلههم واحد بنص القرآن: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٦)، **أما اتساق تصور الإله في الإسلام مع الفطرة ومقتضىٰ العقل السليم فمن أظهر الأمور. يقول أرنولد توينبي:** «يتميز الإسلام بصرامة توحيده... والتصور الواضح لسمو الذات الإلهية». *An Historian's Approach to Religion*، ١٩٥٦م، ص (٢٢). (ش).

سام هاريس - الرد الثاني...

حسناً، ربما لاحظتم أن الدكتور كريغ لديه عادة ساحرة في تلخيص نقاط خصمه بطريقة لم يقصدها الخصم فعليّاً، لذلك سأترك لكم مهمة فرزها على موقع يوتيوب[1]. ولا أحتاج القول بأنني لم أصف زملاءه الموقرين الذين ذكرهم بأنهم معتلون نفسيّاً، كما وضحت.

على كل حال، لقد عرّف الدكتور كريغ الرب على أنه فقط خير بطبيعته. إن أردت أن تتهم أحداً بارتكاب ألعاب دلالية بحتة، فعليك أن تنظر لنفسك أولاً. لا أرى أي سبب يمنع من وجود إله شرير، أو آلهة شريرة. حسناً، إله الدكتور كريغ خير بطبعه، والخير متأصل في طبيعته المحضة، إنها مناورة تعريفية قام بها.

الآن، لقد قدمتُ برهاناً أكيداً لتأصيل الأخلاق الموضوعية في سياق

---

(١) عند فرز اليوتيوب سيتبين أيضاً أن هاريس ليس لديه عادة ساحرة وإنما قدرة خارقة على ذر الرماد في العيون والحيدة وإضلال المخالف عن محل النزاع. وبالنسبة لزملاء كريغ فإن كريغ لم يذكر أن هاريس اتهمهم صراحة وإنما ذكر أن هذا لازم قوله إن كان يلتزم إطلاقه، وهذا حق. (ش).

العلم[1]. والتفكير في الحقيقة الأخلاقية في سياق العلم سيكون معضلاً عندك فقط إذا تخيلت أن علىٰ علم الأخلاق أن يكون مبرَّراً لذاته بطريقة لا يمكن أن يكون عليها أي علم آخر. حسناً علىٰ كل فرع من فروع العلم أن يعتمد علىٰ فرضيات بدهية أو قيم أساسية معينة. وعلم الأخلاقيات سيكون مبنيّاً علىٰ الأسس نفسها التي بنيت عليها علوم الطب والكيمياء والفيزياء. عليك فقط أن تفترض أن أسوأ بؤس ممكن للجميع أمر سيئ ويجدر تجنبه، وبالفعل هو أسوأ شيء ممكن أن يحدث للحياة الواعية. وإذا كان العلم غير علمي، أقصد إن كان افتراض القيمة في العمق يجعل العلم غير علمي، فما هو العلمي إذاً؟

الدكتور كريغ مشوش حول ما يعنيه الكلام بعلمية موضوعية عن حال الإنسان. إنه يقول أشياء من قبيل: «من وجهة نظر العلم، نحن لسنا إلا تجمعات من الذرات، ولسنا بأكثر قيمة من الحشرات أو الجرذان». حسناً، وكأن الشيء العلمي الموضوعي الوحيد الذي يمكن أن يقال عنا هو أننا تجمعات من الذرات. حسناً هناك طريقتان مختلفتان نستعمل بهما هذين المصطلحين «ذاتي Subjective» و«موضوعي Objective». الطريقة الأولىٰ إبستيمولوجية، تتعلق بكيف نعرف، وعندما نقول بأننا نفكر أو نستدل موضوعيّاً بهذا المعنىٰ، فإننا نتحدث عن الأسلوب الذي نستخدمه حين نفكر. نحن

(١) دعوىٰ تفتقر إلىٰ دليل، بل بهتان. (ش).

نتحدث عن حقيقة أننا نرىٰ بعد تجاوز انحيازاتنا، أي نقول بأننا نحاول طرح هذه الانحيازات جانباً. نفكر بطريقة تَخضع للبيانات، وعقولنا مفتوحة للحجج المعاكسة. الآن هذا هو الأساس المطلق للعلم وهو ما يخلق هذه الفجوة المثيرة للاستياء بين الدين والعلم، وهي الفرق هنا في مقاربة الموضوعية. لكنّ العلم لا يتطلب منا أن نتجاهل حقيقة أن بعض الحقائق ذاتية، ذاتية في كينونتها (انطولوجياً). حسناً هناك حقائق عن حالة الإنسان يمكن للعلم أن يفهمها ويدرسها، وهي حقائق عن الذات، حقائق حول وصف حقيقة الذات. ويمكننا دراسة هذه الحقائق واكتشاف مدىٰ عمق حياتنا وغناها، فهي أرفع قدراً من حياة الصراصير؛ لذا فإن الدكتور كريغ قد جاءنا باختزال باطل هنا.

إذاً، هناك حقائق ذاتية؛ فإن كان لدىٰ أحد جهاز عصبي سليم، فسيكون حرقه حيّاً أمراً مؤلماً بشكل لا يطاق. إيلام الألم هو حقيقة ذاتية بالنسبة له. حسناً، ولكن ما يترتب علىٰ حجتي أن بإمكاننا التحدث بموضوعية عن نوع معين من الحقائق الذاتية التي تسمىٰ الأخلاق وتتصل بقضايا «الخير» و«الشر»، وأنها تعتمد علىٰ ازدهار الكائنات الواعية، وخصوصاً نوعنا البشري.

في ضوء هذا، يمكننا أن نرىٰ إمكانية منح الأهمية لأمور لا تستحقها. أعني، لو كنت تظن أنك تفضل أن تكون عصابيّاً وتعاني الألم، وعاجزاً عن العمل الإبداعي، ومنقطعاً كليّاً عن البشر من

حولك، فهنالك حتماً خطأٌ ما بك. خطأٌ موضوعي بك؟ نعم![1] لأنك تتنكر للحالات الواعية العليا. ونقول العليا بالنسبة لماذا؟ هي عليا ببعدها عن أدنىٰ حالة ممكنة من الوعي؛ وهي أسوأ بؤس ممكن للجميع.

وهل أسوأ بؤس ممكن للجميع أمر سيئ فعلاً؟ لقد ضربنا مرة أخرىٰ حجر أساس فلسفيّاً بمجرفة سؤال غبي. الآن أريد أن أستطرد لفترة قصيرة للحديث عن هذه الممكنات العليا، لأن من الشائع الاعتقاد بأن غير المؤمنين مثلي يتنكرون لبعض التجارب العميقة التي يمر بها المتدينون. هذا ليس صحيحاً؛ هذا ليس صحيحاً. لا يوجد شيء يمنع الملحدين من اختبار مشاعر تسمو فوق الذات من الحب والوجد والطرب والخشية. لا شيء يمنع الملحد من الذهاب إلىٰ كهف لمدة عام، مثل متصوف حقيقي، فلا يفعل شيئاً سوىٰ تدبر العاطفة والتفكر فيها. ما لا يميل لفعله الملحدون عادة إطلاق مزاعم غير مبررة ولا يمكن تبريرها عن طبيعة الكون أو عن الأصل الإلهي لكتب معينة بناء علىٰ تجارب كهذه[2].

---

(١) يحتج هاريس هنا بمحل النزاع، وهذا غلط تقني في الجدل والمناظرة، لا يجوز الاحتجاج بمحل النزاع، ومحل النزاع هو: ما الأساس الموضوعي لاعتبارك ذلك «خطأً موضوعيّاً»؛ وقد نبه كريغ علىٰ هذا الخلل ولكن هاريس لا يرعوي. (ش).

(٢) في هذا تزكية يكذبها الواقع؛ ومن أراد الوقوف علىٰ طرف من ذلك فليطالع كتاب «وهم الشيطان» للفيلسوف ديفيد بيرلنسكي؛ وهو قيد الترجمة من إصدارات=

الآن، إني آخذ علىٰ محمل الجد أرجحية أن يصبح أحدهم قديساً حقيقيّاً في حياته، وملهماً للناس بعد مماته لفترة طويلة. لقد قضيت وقتاً طويلاً أدرس التأمل مع بعض شيوخ مدربي اليوغا الحكماء الرائعين، والرهبان البوذيين اللاميين الذين أمضوا عقوداً في معتزلهم، أعني مع أناس مرموقين حقّاً. أناس أعتبرهم فعليّاً عباقرة روحيين من نوع ما. ولذلك أستطيع أن أتصور جيداً تجربة أتباع يسوع إن كان عبقريّاً روحيّاً، أي إن كان شخصاً حكيماً وغير عصابي وله قبول حسن. أستطيع أن أتصور جيداً نوع التأثير الذي تركه في حياتهم. ليس علينا أن نفترض سلفاً أي شيء ليس عليه دليل كاف لنستكشف هذه المنطقة العليا من الرفاهية البشرية. ليس علينا أن ننسب أي شيء للإيمان. ليس علينا أن نكذب علىٰ أنفسنا أو علىٰ أطفالنا بشأن طبيعة الواقع. إذا أردنا أن نفهم موقعنا في هذا العالم، بالإضافة إلىٰ هذه الممكنات الأعمق، علينا أن نقوم بذلك بروح العلم. حسناً، باعتبار أن الناس خاضوا هذه التجارب علىٰ كافة الأصعدة، أي عندما كانوا يعبدون إلهاً واحداً، أو يعبدون مئات من الآلهة أو لا يعبدون أي إله، فهذا يثبت تأثير مبدإٍ أعمق. وأن المزاعم الطائفية الخاصة بدياناتنا المتنوعة ليست صحيحة في هذا السياق، وأن كل ما لدينا هو الحوار الإنساني للإحاطة بهذه الممكنات. إما أن يكون لدينا حوار من القرن الأول كما يملي علينا العهد الجديد، أو حوار من القرن السابع كما

=مركز دلائل أيضاً ١٤٣٧هـ، أسأل الله العون لإتمامه. (ش).

يملي علينا القرآن - أو نأخذ حواراً من القرن الحادي والعشرين يتركنا منفتحين علىٰ الثروة الكاملة من الخبرة البشرية»[1].

رجاء فكروا بهذه الأشياء.

* * *

(١) هذه عبارة ملهمة وجميلة من هاريس حين تؤخذ علىٰ أساس التسليم بصحة الإلحاد كرؤية للعالم، والتسليم بأن المستقبل يحمل في جعبته دومـًا ما هو أكمل وأفضل من الماضي، وكلتاهما مقدمة ننازعه فيها. فوق هذا علينا أن نشير - خلافًا لما توهمه عبارة هاريس - إلىٰ أن خطاب القرآن عالمي الوجهة، ومقصده جمع الناس، وقطع دابر الفرقة بين البشر، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ (آل عمران: ٦٤)، ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٩٢)، أما إطلاق الانفتاح علىٰ كامل الخبرة البشرية، فمن شأنه أن يؤجج النزاع ويؤدي إلىٰ ما أسماه الفيلسوف ويليام تشيتيك William Chittick بمشكلة «التكثير»، أي تكثير العوالم والرؤىٰ والنظريات والفرضيات، وهذا عامل تفريق أساسي، أما الرسالة الإسلامية فيحكمها في مقابل مشكلة «التكثير» مبدأ «التوحيد»، علىٰ مستوىٰ أممي وديني ودنيوي، وليس المقصود بالتوحيد هنا نفي جميع أشكال التمايز بينهم، فهذا ممتنع بنص الشرع نفسه، وإنما نفي أسس الاختلاف التي من شأنها أن تؤجج الصراعات الضارة بالبشر علىٰ هذا الكوكب، وعلىٰ رأس هذه الأسس، أساس فهم غاية الوجود الإنساني. (ش).

ويليام كريغ – الكلمة الأخيرة...

أود في كلماتي الأخيرة هذه الليلة أن أفض معكم بعض خيوط هذه المناظرة لننظر إن كان بإمكاننا الخلوص إلىٰ بعض النتائج.

جادلت بداية أن الرب إن كان موجوداً فإن ذلك سيقدم أساساً متيناً للقيم والواجبات الأخلاقية الموضوعية، لكن لم يعرض الدكتور هاريس حتىٰ آخرِ رد له أي حجة تعارض هذه الفكرة سوىٰ القول بأنني أعرّف الرب فقط علىٰ أنه خير، وهي المغالطة نفسها التي اتهمته بارتكابها. لكنني لا أعتقد أن الحال كذلك البتة، فالرب موجود يستحق العبادة، وكل موجود لا يستحق العبادة ليس ربّاً[1]، وبالتالي فالواجب العقلي أن يكون الرب كامل الخيرية، وحقيقته الخير.

---

(١) عبارة بديعة من كريغ؛ وهي مدلول الشهادة في الإسلام «لا إله إلا الله»، أي: لا مألوه، أي معبود، بحق إلا الله. انظر: **تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد**، للصنعاني، ت. البدر، ص (٥٤).

قال حافظ الحكمي في المعارج: «فهو أحد في إلهيته، لا معبود بحق سواه، ولا يستحق العبادة إلا هو، ولذا قضىٰ ألا نعبد إلا إياه». انظر: **معارج القبول بشرح سلم الوصول إلىٰ علم الأصول** (١/ ١٣٦)، دار ابن القيم. (ش).

بالإضافة إلىٰ ذلك كما رأىٰ أنسلِم[1]Anslem، فإن الرب أعظم موجود يمكن تصوره، ولذا فإنه بحد ذاته النموذج الإطاري للخير نفسه، بل هو الخير الأعظم، وهكذا بمجرد أن تدرك مفهوم الرب ستجد أن سؤال: «لماذا الرب خيّر؟» هو سؤال يشبه «لم كل العزّاب غير متزوجين؟» إنه المفهوم نفسه لأعظم موجود يمكن تصوره، وللموجود المستحق للعبادة، والذي يقتضي ذاتية الخير في الرب. وأعتقد أنه من البين؛ إن كان الرب موجوداً فسيكون لدينا أساس متين لقيم وواجبات أخلاقية موضوعية.

انتقلت ثانياً لأناقش فكرة «لو لم يكن الرب موجوداً فلن يكون لدينا أساس متين للقيم الأخلاقية الموضوعية والواجبات الأخلاقية الموضوعية»، وبينت أنه ضمن وجهة نظر هاريس توجد استحالة منطقية لمقولة أن مشهد الأخلاق متطابق مع مشهد ازدهار الكائنات الواعية، وبالتالي تكون رؤيته غير متماسكة. واختبرنا معكم أيضاً التمييز بين (يكون/ يجب أن يكون) وأن (الوجوب يقتضي الاستطاعة)، وهما ما لم يردّ عليهما الدكتور هاريس في مناظرتنا الليلة.

قال الدكتور في كلمته الأخيرة: «علينا ببساطة أن نعتمد علىٰ مسلّمات محددة». حسناً، إن ذلك يماثل تماماً القول بأن عليك أن تقبل هذا الأمر بالاعتقاد! وإن كانت تلك المسلمات أخلاقية فإني

---

(١) أسقف كانتربري أنسلم (بالإنجليزية: Anselm of Canterbury) هو لاهوتي وفيلسوف كان له تأثير بالغ في اللاهوت الغربي (المترجم).

أظنه يسلّم بفكرتي بأنه في الإلحاد لا توجد أي أرضية للإيمان بالواجبات والقيم الأخلاقية الموضوعية. فالملحد لا يأخذ بها إلا عبر قفزة إيمانية.

يقول: «حسناً، هناك عدة معان لكلمة موضوعي». بالطبع هذا صحيح، وقد بينت في كلمتي الافتتاحية المعنىٰ الذي أقصده من المصطلح: أعني قولي: «صالحة وملزمة بمعزل عن الرأي البشري»، والقيم الأخلاقية ليست ملزمة وصالحة موضوعيّاً بهذا المعنىٰ في النظرة الإلحادية. ويقول هاريس: «يستطيع العلم دراسة الحقائق الذاتية كالألم علىٰ سبيل المثال حقيقة ذاتية». ونسلم بأن ذلك صحيح تماماً، وسؤالي هو: «هل كون الفعل خطأً هو حقيقة ذاتية؟» من الصعب في النظرة الإلحادية أن ترىٰ هذا متجاوزاً لحقيقة ذاتية ما، وبكلا الحالين لا تستطيع أن تقول كما يرد الدكتور هاريس أن يقول (وأتفق معه فيما يقول) بأن التشويه الجنسي لطفلة صغيرة خطأ موضوعي، وليس مجرد رأي شخصي.

يقول: «حسناً، لكن، لو كنت معتلًّا نفسيّاً أو مريضاً بالعصاب فالخطأ فيك أنت!» أسلّم بذلك وأتفق معه؛ فالخطأ فيك أنت! لكن السؤال هو، في الإلحاد - إن كان الإلحاد صحيحاً - هل سيوجد أي شيء في تصرفات المعتل نفسيّاً يمكن اعتباره خطأ أخلاقيّاً موضوعيّاً؟ لم يكن باستطاعة هاريس تبيان ذلك، والحقيقة أن في وجهة نظره لا توجد أي واجبات أخلاقية، وتذكروا أنه اعترف بنفسه

أن بإمكان المعتل نفسيًا أن يعتلي قمة الازدهار فيما يسميه «مشهد الأخلاق»، وهو بالتالي ليس مشهداً أخلاقيًا البتة.

لنخلص إلىٰ النتائج، أود اقتباس نص من المقالة الرائعة التي نشرت في مجلة القانون Duke Law لمؤلفها آرثر آلن لِف[1] بعنوان: «الأخلاقيات المبهمة والقانون غير الطبيعي»، والصعوبة التي واجهت الدكتور لِف في المقالة هي ذاتها التي واجهت الدكتور هاريس عند محاولة إيجاد أساسٍ للواجبات والقيم الأخلاقية - وفي الحالة هنا - أساسٍ للقانون، أساسٍ مستقل عن رأي الإنسان - أي يكون موضوعيًا وعالميًا - لكنه لم يستطع إيجاد ذلك الأساس، فقال بأن أي محاولة لإيجاد أساس للقيم هي محاولة مفتوحة للأخذ والرد. وسيعترض عليه بحجة معاكسة تقول: «ومن الذي قال ذلك؟» وكانت نهاية مقالته كما يلي:

«كل ما أستطيع قوله هو: يبدو الأمر وكأننا نحن كل ما نملك..... ماذا لو كانت الأخلاقيات شيئًا لا نقوله نحن [أي شيئًا عُلويًا] هل من الممكن أن يكون القانون غير طبيعي، وبالتالي لا يمكن نقاشه؟ ولكن الأمور بحالتها الراهنة أن كل شيء قابل للانتهاك[2]. ومع كل ما سبق نقول:

---

(١) Arthur Allen Leff (المترجم).

(٢) في رواية «الإخوة كارامازوف» لـ دوستويفسكي، هتف إيفان كارامازوف: إن لم يكن الله موجوداً، فكل شيء مباح. (ش).

حرق الأطفال بالنابالم أمر سيئ،

وتجويع الفقراء كريه،

وغش بعضنا لبعض انحطاط..

هناك شيء يتصف بالشر في هذا العالم.

(كلنا نعترض الآن): من قال ذلك؟

فليساعدنا الرب»[٢٠].

* * *

سام هاريس - الكلمة الأخيرة...

يغمرني الفضول لأعرف، كم واحداً منكم يعتبر نفسه مسلِماً ملتزماً؟ تعالوا نأخذ تصويتاً برفع اليد، لا أعني فرز أي أحد ولكن يوجد القليل منكم مسلمون. هل تعرفون جميعاً الآن أن القرآن موجود بكل تأكيد وأنه يدعي أنه الكلمة الكاملة من خالق الكون؟ هل تعلمون أن بمجرد معرفتكم لهذا الاحتمال وكفركم به يعني أنكم جميعاً ستدخلون النار وتخلدون فيها للأبد؟[1] ما أقصده، لا حاجة للقول إنني والدكتور كريغ سنكون معاً في الجحيم إن كانت وجهة

(١) هذا إطلاق غير صحيح. في الإسلام، لا تقوم الحجة على الآخر بمجرد سماعه بكتاب اسمه القرآن. تقوم الحجة ببلوغ «الحجة» كما يوحي به اللفظ نفسه؛ أي: رسالة القرآن، لا العلم المجرد باسمه فقط. لذلك قال تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ (الأنعام: ١٩)، أي من بلغه القرآن، أي المقروء، لا من بلغه اسمه. ولذلك اشترط جمع من المحققين أن قيام الحجة لا يتم إلا بفقه مرادها، أي العلم بمدلولها، وهذا لا يحصل بمجرد معرفة أن للمسلمين كتاباً يطلقون عليه القرآن وأنه من عند الله. ولذلك قال ابن تيمية ﷺ في **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح** (٢/ ٢٩٣): «فمن بلغه بعض القرآن دون بعض قامت عليه الحجة بما بلغه دون ما لم يبلغه». ولا يصح كلام ابن تيمية بهذا التفصيل لو كان يكفي مجرد العلم بوجود كتاب ديني اسمه القرآن. (ش).

النظر هذه صحيحة. المشكلة أن كل ما قاله الدكتور كريغ الليلة ينطبق تماماً (مع بعض التعديلات الطفيفة) على الدفاع عن الإسلام، والحقيقة أنه قد قيل فعلاً للدفاع عن الإسلام. فالمنطق واحد تماماً: لدينا كتاب يدعي أنه كلمة الله خالق الكون، وهو يخبرنا عن طبيعة الواقع الأخلاقي وكيف علينا أن نعيش فيه. لكن ماذا إن كان المسلمون على حق؟ ماذا إن كان الإسلام حقّاً؟ كيف علينا أن ننظر للرب بالمصطلحات الأخلاقية؟ وكيف لنا أن ننظر له بالمصطلحات الأخلاقية؟ أم عليّ أن أقول «الله» وليس «الرب»؟ أجل، لقد ولدنا جميعاً في المكان الخطأ ومن الآباء الخطأ، ولقنونا الثقافة الخطأ لنعتقد بالديانة الخطأ. أجل، ولا حاجة للقول بأن الدكتور كريغ في هذه الحالة هالك لا محالة، فهو مشوش جداً بالمسيحية. أعني فقط قدروا الموقف السيئ الذي هو فيه لأنه لم يصل لمعرفة كلمة الرب الحقيقية[1]. أما أنا فإنني مضلل للغاية بالعلم. حسناً، فأين رحمة الله؟ كما أنه أزلي خالد ومطلق - مطلق القوة، يستطيع تغيير هذا الحال بلحظة؟ يستطيع أن يعطينا إشارة تقنع جميع من في هذه الغرفة، ولكنه لن يفعل ذلك[2]، والجحيم ينتظرنا! كما ينتظر الجحيم الأطفال لأننا لا

---

(١) قال ابن تيمية في الجواب الصحيح (٢/ ٢٩١): «هنا أصل لا بد من بيانه وهو أنه قد دلت النصوص على أن الله لا يعذب إلا من أرسل إليه رسولاً تقوم به الحجة عليه»، وذكر الأدلة الدالة على ذلك. وقد نبهت على هذا الأصل سابقاً. (ش).

(٢) لا حاجة لاقتراح هاريس؛ فقد جاء به القرآن نفسه. قال تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ (الشعراء: ٤)، قال ابن كثير عند هذه=

نملك إلا أن نعلم أولادنا الضلالة. الآن، واستحضر هذا التصور في الذهن وقدر أولاً كم يسبب التفكير في هذا الاحتمال لك من الأرق. حاول أن تستشعر في هذه اللحظة فقط كم أنت سعيد، وستبقىٰ كذلك علىٰ الدوام في مواجهة هذه الاحتمالية. ما هي احتمالات أن نذهب جميعًا إلىٰ الجحيم ونخلد فيها إلىٰ الأبد لأننا لم نعترف بأن القرآن هو الكلمة الكاملة لخالق الكون؟ أرجوكم، أن تعلموا بأن هذا هو الوجه الذي تظهر به المسيحية لشخص لم يلقن عقيدتها.

خطّ كتابَنا المقدس بشرٌ كان لديهم بمقتضىٰ موقعهم التاريخي أدوات أقل للوصول إلىٰ المعلومات والحقائق العلمية، وحس منطقي سليم أقل مما يملكه أي أحد منكم في هذه الغرفة. حسنًا، في الواقع لا يوجد أي شخص في هذه الغرفة التقىٰ يومًا بأحد ذي وجهة نظر كونية أضيق مما كان لدىٰ[1] إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد. ولمعظم الناس - مع بعض الاستثناءات - نظرة أخلاقية للكون أكثر أو أقل غموضًا مما يملكه أمراء الحرب في أفغانستان. حسنًا، ومع ذلك يصر الدكتور كريغ علىٰ أن مؤلفي الكتاب المقدس يعلمون كل شيء يجب

=الآية: «يقولون للرسول ﷺ: ألا تجهد نفسك في طلب الآيات من الله، حتىٰ نراها ونؤمن بها، قال الله تعالىٰ له: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ (الأعراف:٢٠٣)، أي: أنا لا أتقدم إليه تعالىٰ في شيء، وإنما أتبع ما أمرني به فأمتثل ما يوحيه إليّ، فإن بعث آية قبلتها، وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها؛ إلا أن يأذن لي في ذلك، فإنه حكيم عليم». تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٣٥). (ش).

(١) تعالىٰ ربنا وتنزهت رسله (المترجم).

أن يعلموه حول طبيعة الكون وحول كيفية الحياة فيه بما يكفي ليرشدنا اليوم. حسناً، أريد القول بأن هذه النظرة للحياة لا يمكن أن تكون صحيحة بحال. حسناً، كما لا يوجد شيء اسمه الفيزياء المسيحية أو الجبر المسلم، فلا يوجد أيضاً أخلاق مسلمة وأخلاق مسيحية[1]. كل ما يصح حول ظروفنا بالمصطلحات الأخلاقية وبالمصطلحات الروحية قابل للاكتشاف اليوم وللتحدث عنه بلغة لا تحتقر بصراحة كل شيء تعلمناه في الأعوام الألفين الأخيرة. ما يبقىٰ أمامنا هو اكتشاف الحقائق في كل مجالات المعرفة، وهذا سيسمح لأكبر عدد ممكن منا بالعيش في حياة تستحق حقّاً أن تعاش في هذا العالم[2]. أعني، كيف يمكننا أن نبني مدنية عالمية - أقصد المدنية العالمية القابلة للتطبيق - لكل البشر الذين سيبلغ عددهم قريباً ٩ مليارات إنسان، والتي فيها سيعيش أكبر عدد ممكن حياة رغيدة

---

(١) بهذا المنطق، ومن باب أولىٰ، لا يوجد شيء اسمه أخلاق إلحادية أو أخلاق علمية. (ش).

(٢) من المفارقات التي يتجاهلها هاريس في هذا الزعم أن سيادة العلم الطبيعي وتقدم البشرية ماديّاً قد شهدا مزيداً من التفكك الاجتماعي، والذبول الأخلاقي، والتحلل القيمي. ويكفي في هذا السياق معرفة سبب ظهور الأطروحات المناهضة لأمراض الحداثة وسلبيات التنوير في الغرب مثل أطروحات المدرسة الفرانكفورتية، وأطروحات زيجمونت باومان، وريتشارد سينيت، ومارثا نوسباوم (في حديثها عن فقدان الأصالة العاطفية)، ومن قبلهما سيغموند فرويد (في تحليله لبؤس الحضارة)، وغيرهم. فمرة أخرىٰ، هاريس يحتج بمحل نزاع جديد، وهذا مردود في الجدل والمناظرة. (ش).

حقّاً. ذلك هو التحدي الذي يواجهنا. وليس الطريق للوصول إلىٰ ذلك الهدف عبر التسميات الطائفية الأخلاقية - حسناً - والعالم المتشظي والمقسم بادعاءات متنافسة حول رب لا يُرىٰ[1]. ناهيك عن حقيقة عدم وجود دليل في المقام الأول يجبرنا علىٰ تبني وجهة النظر تلك.

الأداة الوحيدة التي نحتاجها هي البحث النزيه. وسأقول لكم: إن كان الإيمان محقّاً في أي شيء في هذا المضمار فهو محق بالمصادفة.

شكراً جزيلاً لكم.. إنه لمن دواعي سروري أن أتحدث إليكم جميعاً.



(١) يخبرنا الملاحدة أنهم يطمعون في تحقيق الوحدة الأممية والتخلص من الحروب والصراع وذلك بـ«الاجتماع» علىٰ الكفر بالدين والخالق. من الطبيعي أصلاً أن يؤدي التوحّد حول (أي مبدأ) إلىٰ نفي الحروب والصراع. هذا الهدف للإلحاد ليس امتيازاً حصريّاً، إنه احتجاج بما هو تحصيل حاصل، ويشاركه فيه كل نظام، فلا قيمة لهذه الحجة بعد اليوم. ناهيك عن أن الإلحاد لم يفلح إلىٰ الساعة في تقديم رؤية متماسكة للعالم، فلا غرو أن يزهد في بضاعته الجم الغفير. (ش).

تعليق...

لو أردنا أن نعمم أغلب ما جاء في هذه المناظرة علىٰ أي حوار يقع بين مؤمن متمكن (خاصة في النواحي الفكرية والأخلاقية) وبين ملحد (أيًا ما كان)، فيمكننا القول بأنها تمثل إلىٰ حد بعيد ما يقع بينهما بالفعل وخاصة من الطرف الإلحادي، حيث نرىٰ من الطرف المؤمن دومًا نقاطًا محددة للنقاش أو المناظرة، ولكن يقابله تهرب دائم بشتىٰ (المغالطات المنطقية) من طرف الملحد لمداراة قصور موقفه المادي من مثل تلك الأمور. وهنا نشير إلىٰ أنه رغم توفيق كريغ في أكثر ما قال، ولكن فاته طريقة أفضل لتضييق الخناق علىٰ هاريس وإظهار تهربه بصورة أوضح وذلك بالتالي:

١) بَدء المناظرة بعرض حقيقة المادية الإلحادية التي تنظر لكل شيء - بما فيه البشر - علىٰ أنهم ذرات تتبع قوانين لا تحيد عنها، حيث من هنا يفقد الإلحاد مفهوم (حرية الاختيار)، وكذلك مفهوم (الخير والشر) أو (الصواب والخطأ) لأن سلوك الذرات لا يوصف أبداً بأنه صواب أو خطأ!!

٢) عندما بدأ سام هاريس في الهروب كعادة كل الملحدين إلىٰ حُجة الشرور في العالم والأديان إلخ، كان يمكن لكريغ أن يتنزل معه بافتراض أن الأديان شر، ثم يعيد عليه السؤال: هل هناك معاني للخير والشر أو الأخلاق في الإلحاد؟وساعتها لن يستطيع الهروب.

* * *

الملاحظات:

(١) Sam Harris, *The Moral Landscape: How Science Can Determine Human Values* (New York: Free Press, 2010), p. 198. He adds, «I sincerely hope that people like Rick Warren have not been paying attention».

سام هاريس، المشهد الأخلاقي، كيف يحدد العلم القيم البشرية (نيويورك ٢٠١٠)، ص (١٩٨). يضيف: «أتمنىٰ بصدق أن أناساً مثل ريك وارين لم يكونوا يعيرون انتباههم».

(٢) المرجع نفسه ص (٤٦)، يقتبس من Donald Symons

(٣) Sam Harris, «A Response to Critics,» *Huffington Post* (January 29, 2011): http://www.huffingtonpost.com/sam-harris/a-response-to-critics_b_815742.html.

سام هاريس، (رد علىٰ النقاد) هفنغتون بوست (٢٩ كانون الثاني، ٢٠١١).

(٤) هاريس، المشهد الأخلاقي، ص (١٠٢).

(٥) المرجع نفسه، ص (٣٠).

(٦) Michael Ruse, «Evolutionary Theory and Christian Ethics,» in The Darwinian Paradigm (London: Routledge, 1989), pp. 262, 268-9.

مايكل روس، «نظرية التطور والأخلاق المسيحية» في كتاب النموذج الإطاري الداروني ١٩٨٩، الصفحات (٢٦٢، ٢٦٨-٩).

(٧) Charles Darwin, The Descent of Man and Selection in Relation to Sex, 2nd edition (New York: D. Appleton & Company, 1909), p. 100.

تشارلز دارون، تطور الإنسان والاصطفاء بالجنس، الطبعة الثانية (نيويورك، أبلتون وشركاه، ١٩٠٩) ص (١٠٠).

(٨) Richard Dawkins, Unweaving the Rainbow (London: Allen Lane, 1998), *cited* in Lewis Wolpert, Six Impossible Things before Breakfast (London: Faber and Faber, 2006), p. 215

(٩) لسوء الحظ، مرجع Wolpert خطأ، الاقتباس يبدو مقتطفاً من كتاب دوكينز:

River out of Eden: a Darwinian View of Life (New *York*: Basic Books, 1996), p. 133 & Richard Dawkins, «The Ultraviolet Garden,» Lecture 4 of 7 Royal Institution Christmas Lectures (1992), http://physicshead.blogspot.com/2007/01/richard-dawkins-lecture-4-ultraviolet.html.

(١٠) ريتشارد دوكنز، تفكيك قوس قزح (لندن، آلان لاين ١٩٩٨) ذكرها لويس ولبيرت في كتاب (ستة أمور مستحيلة قبل الفطور - لندن: فابر وفابر، ٢٠٠٦) ص (٢١٦)، ولكن للأسف مرجع ولبيرت خطأ، فالاقتباس يبدو مقتطفاً من كتاب دوكينز نهر من جنة عدن: نظرة داروني للحياة (نيويورك: الكتب الأساسية، ١٩٩٦) ص (١٣٣) ومن دوكنز «جنة فوق بنفسجية» المحاضرة الرابعة من كتاب سبع محاضرات رأس السنة للمعهد الملكي (١٩٩٢).

http://physicshead.blogspot.com/2007/01/richard-dawkins-lecture-4-ultraviolet.html .

والشكر لمساعدي جو غورا في تتبع هذا المرجع!

(١١) هاريس، المشهد الأخلاقي، ص (١٢).

(١٢) المرجع نفسه، ص (١).

(١٣) المرجع نفسه ص (١٢).

(١٤) مقتبس في المرجع نفسه ص (١١).

(١٥) المرجع نفسه ص (١٠٤).

(١٦) المرجع نفسه ص (٢١٧).

(١٧) Paul Copan, Is God a Moral Monster? (Grand Rapids, Mich.: Baker, 2011)

بول كوبلان، هل الرب وحش أخلاقي؟ ٢٠١١.

(١٨) هاريس، المشهد الأخلاقي، ص (٨).

(١٩) المرجع نفسه ص (١٩٠).

(٢٠) المرجع نفسه ص (٩٧-٩٩).

(٢١) Paul Copan, *Is God a Moral Monster?*, chaps. 12-14.

بول كوبلان، هل الرب وحش أخلاقي؟ الفصول (١٢-١٤).

(٢٢) Arthur *Allen* Leff, «*Unspeakable* Ethics, Unnatural Law,» *Duke Law Journal* 1979, no. 6, p. 1249

أرثر آلان ليف، «الأخلاقيات المبهمة، والقانون غير الطبيعي»

مجلة ديوك للقانون ١٩٧٩، رقم (٦)، ص (١٢٤٩).

* * *

المصطلحات:

مقابله العربي	الاصطلاح الإنجليزي
مدافع أو مبرر لعقائد المسيحية	Apologist
الأخلاقيات العملية	Applied ethics
مُسَلّمة	Axiom
مُلزم	Binding
مَحتومة سببيًا	Causally determined
رحمة	Compassion
التوافقي (مَن يقول بعدم تعارض الحتمية مع الإرادة الحرة)	Compatibilistic
مُتصل	Continuum
ربوبي	Deist
القطع المشوه للأعضاء التناسلية (ويقصدون به الختان)	Genital mutilation
ذاتي التركيب	Idiosyncratic
تقنية التصوير العصبي لكشف الكذب	Lie-detection neuro-imaging technology

Misogyny	كراهية النساء
Neurobiology	البيولوجيا العصبية
Objective	موضوعي
Relativists	النسبويون
Sadism	السادية
Semantical trick	تلاعب بدلالات الألفاظ
Sound	متين
Speciesism	التمييز وفق النوع البيولوجي (مصطلح حديث يستعمله دعاة حقوق الحيوانات والداروينيون ويُقصد به المماثلة مع مصطلح العنصرية بإطار أوسع)
Subjective	ذاتي - شخصي
Theism	الإيمان بالإله المُتعال (التوحيد)
Valid	صالح
Well-being	رخاء – ازدهار

* * *

هل الإلحاد لاعقلاني؟

Is Atheism Irrational?

جريدة نيويورك تايمز - ٩ فبراير ٢٠١٤م.

مقابلة أجراها غاري جتنغ Gary Gutting، أستاذ الفلسفة في جامعة نوتردام، مع فيلسوف اللاهوت ألفن بلانتنجا Alvin Plantinga.

ترجمة وتعليق: د. عبد الله الشهري.

ويتبعه ثلاثة ملاحق:

ملحق (١):

برهانٌ مختصر يأتي على الإلحاد الإيجابي positive atheism من أصله.

ملحق (٢):

الإيمان بالخالق.. هو أشمل وأمثل قوة تفسيرية بالنسبة للخبرة البشرية.

ملحق (٣):

حجة بلانتنجا وقصور المذهب الطبيعي Naturalism

***

نص المقابلة...

غاري جتنغ:

هذا هو اللقاء الأول ضمن سلسلة من المقابلات التي أجريها عن الدين، وضيفنا هذه المرة هو ألفن بلانتنجا Alvin Plantinga، أستاذ الفلسفة الفخري في جامعة نوتردام، والرئيس السابق لكل من جمعية الفلاسفة المسيحيين والجمعية الفلسفية الأمريكية، ومؤلّف الكتاب الذي صدر مؤخراً، بعنوان «أين يكمن التعارض حقاً: العلم، والدين، والمذهب الطبيعي».

حيث تشير دراسة أجريت مؤخراً من قِبل PhilPapers - مؤشر الفلسفة عبر الإنترنت - إلىٰ أن ٦٢ في المئة من الفلاسفة هم ملاحدة (مع ١١ في المئة أخرىٰ «يُبدون ميلاً» إلىٰ هذه الرؤية). هل تعتقد أن أدبيات الفلسفة تقدم من النقد للعقيدة الألوهية Theism ما ينهض لتبرير وجهات نظرهم؟ أم تعتقد أن إلحاد الفلاسفة تقرره عوامل أخرىٰ غير التحليل العقلاني؟

ألفن بلانتنجا:

إن كان ٦٢ في المئة من الفلاسفة ملاحدة، فهذا يعني أن نسبة

الملاحدة بين الفلاسفة أكبر بكثير من (في الواقع، ما يقرب من ضعف) نسبة الملاحدة في الوسط الأكاديمي عموماً. (أُعرّف الإلحاد هنا علىٰ أنه الاعتقاد بأنه لا وجود لشيء مثل إله الأديان الألوهية)[1].
والآن هل يعلم هؤلاء الفلاسفة شيئاً هنا لا يعلمه الأكاديميون الآخرون؟ وما عساه أن يكون؟ إن الفلاسفة، خلافاً لغيرهم من الأكاديميين، معنيون في الغالب علىٰ نحو مهني بالحجج الألوهية - الحجج الدالة علىٰ وجود الله. تخميني هو أن الكثرة الكاثرة من الفلاسفة، سواء من المؤمنين وغير المؤمنين، يرفضون هذه الحجج بصفتها واهية.

ومع ذلك ليس هذا كافياً للإلحاد. في صحيفة «ذي إندبندنت» The Independent البريطانية، سئل العالم الطبيعي ريتشارد دوكنز مؤخراً هذا السؤال: «لو أنك مت ثم قدِمت علىٰ أبواب الجنة، ماذا ستقول لله لكي تبرر إلحادك الذي لازَمكَ مدىٰ الحياة؟»، فكان جوابه: «سوف أستشهد ببرتراند راسل: لم يكن هناك أدلة كافية، يارب! لم يكن هناك أدلة كافية». ولكن عوز الأدلة، إن كان هناك من عوز في الأدلة فعلاً، لا يوفّر أساساً للإلحاد. لا أحد يعتقد أن هناك أدلة صالحة للفرضية القائلة بأن هناك عدداً زوجياً من النجوم، ولكن

---

(١) الإسلام والنصرانية واليهودية. يطلقون عليها أحياناً الأديان الإبراهيمية Abrahamic أو التوحيدية Monotheistic وإن كنا لا نسلم كمسلمين بتحقق مضمون هذا الإطلاق تاريخياً.

أيضاً لا أحد يعتقد أن الاستنتاج الصحيح الذي يمكن استخلاصه هنا هو أن هناك عدداً غير زوجي من النجوم. عوضاً عن هذا، سيكون الاستنتاج الصحيح هو اللاأدرية.

بنفس المنطق، فشل الحجج الألوهية، إن كان هناك من فشل بالفعل، يمكن اعتباره علىٰ نحو معقول أساساً صالحاً للاأدرية، ولكن ليس للإلحاد[1]. يُفتَرض أن يكون الإلحاد، كما في حديثنا عن زوجيّة النجوم، ذلك النوع من الاعتقاد الذي يمكن اعتناقه بشكل عقلاني فقط في حال امتلاكك حجج قوية أو أدلة.

غاري جتنغ:

أنت تقول أن الإلحاد يفتقر إلىٰ أدلة تدعمه. كثير من الملاحدة ينكرون هذا، ويقولون أن كل ما يتوجب عليهم فعله هو الإشارة إلىٰ خلو المعتقد الألوهي من أي دليل صالح. أنت تقارن الإلحاد بإنكار أن هناك عدداً زوجياً من النجوم، الأمر الذي يتطلب بطبيعة الحال دليلاً. ولكن الملاحدة يقولون (مستعملين مثالاً ضربه برتراند راسل) أنه يتوجب عليك بدلاً من ذلك أن تقارن الإلحاد بإنكار إبريق شاي يدور حول الشمس. لماذا نفضل مقارنتك علىٰ مقارنة راسل؟

---

(١) إذا ما كان الحديث عن «حقيقة» الوجود و«حقيقة» معنىٰ الحياة، و«حقائق» ما نُطلق عليه: أخلاق وعقل وحق، فإنه لا يسع المرء المُنصف إلا أن يكون أدرياً أو لا أدرياً. أما أن يكون مُلحداً أدرياً فلا يستقيم!! نعم هو ممكن بالادعاء، ولكنه غير واقع في نفس الأمر.

ألفن بلانتنجا:

فكرة راسل، كما أفهمها، هي أننا لا نملك أي دليل بالفعل ضد فرضية إبريق الشاي، لكنًا لسنا في حاجة إلىٰ ذلك. انعدام الدليل هو دليل علىٰ العدم، وهذا كاف لدعم فرضية إبريق الشاي. لسنا في حاجة إلىٰ دليل إثباتي ضد هذه الفرضية لتبرير الإيمان ببطلانها، وربما الشيء مثله بالنسبة للعقيدة الألوهية.

أنا أخالف في هذا، من الواضح أن لدينا قدراً كبيراً من الأدلة ضد فرضية الإبريق. فمثلاً، حسب مبلغنا من العلم، السبيل الوحيد الذي أمكن بموجبه لإبريق الشاي أن يتواجد في مدار حول الشمس هو فيما لو كان هناك بلد من البلدان يمتلك إمكانات إطلاق متطورة نحو الفضاء قد قام بإطلاق هذا الإبريق نحو المدار. لا يمكن لبلد بهكذا إمكانات أن يبلغ من الطيش مبلغاً يؤدي به إلىٰ تبذير موارده في محاولة لإرسال إبريق شاي إلىٰ المدار. زيادة علىٰ ذلك، لو أن بلداً ما قد فعل ذلك حقاً، لذاع أمره في كل الأخبار: سنكون قد سمعنا عن ذلك بلا شك. ولكننا لم نسمع، وهكذا، هناك وفرة من الأدلة ضد فرضية إبريق الشاي. وبالتالي، علىٰ طريقة راسل، الألوهية مثلها مثل فرضية إبريق الشاي. بمعنىٰ أنه لكي يبرر الملحد موقفه فإنه يتعين عليه، مثلما يتعين في حق المؤمن بفرضية الإبريق، أن يمتلك أدلة قوية ضد المعتقد الألوهي»[1].

---

(١) لأهمية هذا المسألة، ألحقتُ بهذه المقابلة الملحق (١) بعنوان «برهانٌ مختصر=

غاري جتنغ:

ولكن أليس هناك العديد من الأدلة ضد المعتقد الألوهي - وفي مقدمتها هذا الكمّ المزعوم من الشرور، بفعل إله كامل القدرة، والخير كلّه منه وإليه؟

ألفن بلانتنجا:

من المحتمل أن تكون المشكلة التي تعرف بـ«مشكلة الشر» أقوىٰ دليل (والدليل الوحيد ربما) والذي يمكن استحضاره ضد المعتقد الألوهي. ففيه بالفعل شيء من القوة. إذ من المعقول أن يعتقد المرء أن احتمال ثبوت المعتقد الألوهي، بوجود كل هذا الشر والمعاناة في العالم، سيكون ضئيلاً علىٰ نحو مقبول[1]. ولكن هناك أيضاً حجج للمعتقد الألوهي بطبيعة الحال. حقاً، هناك طائفة صالحة من الحجج الجيدة للمعتقد الألوهي. وبالتالي علىٰ الملحد أن يسعىٰ إلىٰ الموائمة والموازنة بين الاحتمالات. ليس هذا أمراً يسيراً علىٰ الإطلاق، ولكن من الواضح جداً أن النتيجة لن تؤيد بأي

=يأتي علىٰ الإلحاد الإيجابي positive atheism من أصله»، مقتبسة من «ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان».

(١) من المهم أن ننبه علىٰ أن القوة السلبية لهذا الدليل تتفاوت من دين إلىٰ دين. والمروية المسيحية - كما سيُقررها بلانتنجا لاحقاً - مروية واهية تزيد بطبيعتها من قوة شبهة الشر. بخلاف المروية التي ينشئها المرء بشكل متكامل من القرآن وصحيح السنة، فإنها تضعف هذه الشبهة، إن لم تستأصلها.

حال من الأحوال الإلحاد الصريح إذا ما قوبل باللاأدرية.

غاري جتنغ:

ولكن حين تقول أن «هناك طائفة صالحة من الحجج الجيدة»، فإنك لا تعني أنها حاسمة - بمعنىٰ أنها صالحة لدرجة إقناع أي شخص عاقل يفهمها[1].

ألفن بلانتنجا:

أولاً عليّ أن أقرر بوضوح أنني لا أرىٰ أن الحجج مطلوبة من أجل إيمان متعقل بالله[2]. بهذا الاعتبار، يصبح الإيمان بالخالق

---

(١) حسم الدليل من عدمه ليس راجع بالضرورة إلىٰ الدلالة الذاتية للدليل، وإنما لعوامل أخرىٰ نفسية واجتماعية. فلدينا ناظر ومنظور ونظر. لا يلزم من فساد الناظر فساد المنظور (خلل نفسي/ اجتماعي) ولا من فساد النظر فساد المنظور (خلل معرفي/ استدلالي). وهكذا قد يكون الدليل حاسماً من جهة دلالته، بمعنىٰ أنه لا يمكن أن يدل علىٰ خلاف ما يدل عليه إلا بالتعسف والتحريف، ولكن يأبىٰ المتلقي الاعتراف به علىٰ وجهه لأسباب شخصية بحتة، كما سيأتي معنا في مثال الفيلسوف توماس ناجل الذي ساقه بلانتنجا.

(٢) في فلسفة اللاهوت المسيحي يطلق علىٰ ظاهرة الإيمان المجرد من الاستدلال العقلي أو الحسي اصطلاح فيديزم Fideism. فالمرء بحسب هذا المفهوم مطالب بالإيمان مباشرة، وقد شاع هذا المفهوم في المذهب البروتستانتي وتمكّن منه حتىٰ صار أصلاً من أصول الاعتقاد فيه. يقول بارث Barth (1886-1968م): «الله معلوم بالله فقط».

يُنظر: Thiselton, A. (2002) A Concise Encyclopedia of the Philosophy of Religion, p. 102. ولكن ما يقال في المسيحية لا يقال في غيرها، ونحن ندرك=

كالإيمان بوجود عقول أخرىٰ، أو كالإيمان بالماضي. الإيمان بالله مغروس في الخبرة البشرية. أو في الفطرة Sensus divinitatis، وهو اصطلاح جون كالفن John Calvin للتعبير عن ميل طبيعي لتكوين معتقدات عن الله في نطاق واسع من الظروف المتنوعة[1]. ومع ذلك أعتقد أن هناك عدداً كبيراً - بضع عشرات ربما - من الحجج الألوهية الصالحة. ليس شيئاً منها بمفرده حاسماً، ولكن كلاً منها، أو علىٰ أي حال لو أخذت الحزمة في مجموعها، فإنها تبلغ من القوة ما يمكن أن تبلغه الحجج الفلسفية في الأحوال العادية[2].

غاري جتنغ:

هل يمكن أن تذكر مثالاً لتلك الحجج؟

=بأدنىٰ تأمل أن هذا المفهوم أجنبي علىٰ الطريقة القرآنية التي لم تجعل العلاقة بين الإيمان والتعقل وطيدة فحسب وإنما ضرورية.

(١) تنطق Sensus divinitatis هكذا: سينسوس ديفينيتاتيس. في صحيح السنة أن كل مولود يولد علىٰ الفطرة. قال ابن تيمية معلقاً علىٰ هذا الحديث: «فإنه سبحانه فطر القلوب علىٰ أن ليس في محبوباتها ومراداتها ما تطمئن إليه وتنتهي إليه إلا الله». مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٢٤٩). دراسات جستن باريت Justin Barrett والأنثروبولوجي جيمس لوبيا James Lcuba اعتنت بهذا الجانب وأكدت وجود هذه النزعة الطبيعية.

(٢) في كتابه The Existence of God عاب فيلسوف اللاهوت ريتشارد سوينبرن Richard Swinburne علىٰ الملاحدة نظرهم الإفرادي في الأدلة، وقرر أنهم لو أخذوها جملةً لكان وقع دلالتها مجتمعة أقوىٰ.

ألفن بلانتنجا:

من الحجج الحاضرة والشائعة إلىٰ حد ما: حجة الضبط الدقيق Fine tuning. يخبرنا العلماء أن هناك خصائص يبديها الكون إلىٰ درجة أنها لو اختلفت اختلافاً يسيراً عما هي عليه في الواقع لكانت الحياة غير ممكنة، أو علىٰ الأقل نوعنا من الحياة، حيث يبدو أن الكون قد ضبط ضبطاً دقيقاً للحياة. مثلاً، لو أن قوة الانفجار الكبير كانت مختلفة بجزء واحد فقط من (١٠ أس ٦٠) جزء، فإن حياة من جنس حياتنا لم تكن لتكون ممكنة. وكذلك الأمر فيما يتعلق بقوة الجاذبية بالنسبة للقوة المسؤولة عن اتساع الكون: لو أنها اختلفت أدنىٰ اختلاف لتعذر وجود نوعنا من الحياة، في الواقع يبدو الكون مضبوطاً ضبطاً دقيقاً لا لجنس الحياة فحسب وإنما للحياة العاقلة أيضاً. هذا النوع من الضبط يرجح - إلىٰ حد بعيد - كفّة المعتقد الألوهي علىٰ الإلحاد.

غاري جتنغ:

ولكن حتىٰ لو أقنعت حجة الضبط الدقيق (أو أية حجة مشابهة) أحدهم بأن الله موجود[1]، أليست قاصرة جداً عما يقرره المعتقد الألوهي للمسيحية؟ تحديداً قضية وجود إله كامل. بما أن العالم ناقص، لم الحاجة إلىٰ كائن كامل ليفسّر لنا العالم أو أي سمة فيه؟

---

(١) لا يخفىٰ أن هناك تحفظ وجدل حول التعبير بلفظ «موجود»، ولكن اشتهار دلالته علىٰ أن لله وجود لا يضطرنا لمناقشة هذه المسألة هنا.

ألفن بلانتنجا:

أحسبُ أن تفكيرك يقضي بأن المعاناة والخطيئة هما اللتان تجعلان هذا العالم أقل من كامل. ولكن في هذه الحالة سيكون لتساؤلك معنىٰ فقط حينما يكون أفضل العوالم الممكنة هو الذي لا معاناة فيه ولا خطيئة. فهل هذا صحيح؟ ربما أفضل العوالم الممكنة هو ذاك الذي يشتمل علىٰ كائنات حرة يستطيع بعضها فعل ما هو خاطئ. حقًا، ربما يكون أفضل العوالم هي تلك التي تشتمل علىٰ سيناريو شبيه جداً بقصة المسيحية[1].

تفكّر في ذلك: أول كائن في الكون، كامل في خيريته، وقوته، وعلمه، يخلق كائنات حرّة. هذه الكائنات الحرة تدير ظهورها إليه[2]، وتتمرد عليه[3]، وتتورط في الخطيئة والشرّ. بدلاً من معاملتهم معاملة قوة حاكمة قديمة - كأن يغليهم في الزيت مثلاً - يستجيب الله بإرسال ابنه للعالم كي يعاني ويموت، لعل بني الإنسان يرجعون مرة أخرىٰ إلىٰ علاقتهم الصحيحة بالإله[4]. الإله نفسه يتحمل المعاناة الجسيمة

---

(١) الواقع أن قصة المسيحية تضاعف الإشكال ولا تحله، ولا هي قريبة من أن تصلح كمثال لعالم كامل، سواء بالنظر لأصل الانحراف في العقيدة المسيحية من ناحية تاريخية، أو بالنظر للمغزىٰ الوجودي لقصة المسيحية في نفسها.

(٢) قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾ (الإسراء: ٦٧).

(٣) قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ (الفرقان: ٥٥).

(٤) هذا هو شاهد القصة الذي يجعل قصة المسيحية برمتها في غاية الوهاء، وإن تصور بلانتنجا أنه مصدر قوتها أو تميزها.

المتمثّلة في مشاهدة ابنه وهو يُهزأ ويُستهزأ به ثم يضرب ويصلب. كل هذا من أجل تلك الكائنات الآثمة[1].

يمكنني القول بأن عالماً تصح فيه هذه القصة سيكون عالم ممكن جليل بحق. سيكون حسناً جداً إلىٰ درجة أنه لا يمكن لعالم آخر أن يكون أفضل منه. فحتىٰ هنا ستشتمل العوالم الأفضل علىٰ الخطيئة والمعاناة.

غاري جتنغ:

حسناً، مهما يكن من أمر، ألا يقف الألوهي علىٰ أرض هشة حين يقترح الحاجة إلىٰ إله كتفسير للكون؟ سيظل الاحتمال قائماً أننا سنجد شرحاً علمياً يفسر ما كنا نزعم أن الإله وحده يمكنه أن يفسره؟ في نهاية الأمر، هذا ما حدث حين طور داروين نظريته للتطور. في واقع الأمر، ألا يعني التشجيع الكبير الذي يحظىٰ به الإلحاد أننا لم نعد في حاجة إلىٰ الله لتفسير العالم؟

---

(١) إشكالات هذا التصور تضاف إلىٰ إشكالات التصور الذي قبله. ففضلاً عن مصادمته لصريح القرآن الكريم، العقل يَمجُّه. قد يقال: فلم لم يَمجُّه عقل في مكانة عقل بلانتنجا؟ والجواب أنه ليس للعقل حالة قارة حين يفارق حالته الطبيعية السوية، ولذلك يقبل النصارىٰ التناقض الذاتي لعقيدة التثليث بلا تردد وإن شعروا أن أنفسهم تأبىٰ ذلك. وقد ذكر ابن تيمية أنه لا يمتنع تواطؤ الجمّ الغفير علىٰ إنكار ضروري من الضروريات. والمسيحية مثال علىٰ هذا. يُنظر مواضع ذات صلة عن آثار انحراف العقل في الرسالة الثانية من كتابي (ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان).

ألفن بلانتنجا:

في ظاهر الأمر، يعتقد بعض الملاحدة أن مما يُعد سبباً كافياً لتبرير اعتناق الإلحاد هو حقيقة (كما يزعمون) أننا لم نعد في حاجة إلىٰ الله لتفسير الظواهر الطبيعية - البرق والرعد مثلاً، فلدينا الآن العلم.

وكمبرر للإلحاد، هذه حجة كسيحة جداً. لسنا في حاجة إلىٰ القمر لشرح أو تفسير حالة الجنون؟[1] وعليه بالكاد يلزم من هذا أن اعتقاد عدم وجود القمر (حالة اللاّتقمُّر؟) يغدو أمراً مبرراً؛ سيكون للموقف اللاَّتقمُّري أساساً معقولاً فقط لو كان الأساس الوحيد للاعتقاد بوجود القمر هو قدرته التفسيرية المتعلقة بواقعة الجنون. (حتىٰ في هذه الحالة، سيكون الموقف المُبرَّر هو اللاأدرية فيما يتعلق بالقمر، لا حالة اللاَّتقمُّر). ذات الأمر يصدق علىٰ الإيمان بالله: الإلحاد علىٰ هذا الأساس سيكون مبرراً لو كانت القوة التفسيرية للمعتقد الألوهي هي السبب الوحيد للإيمان بالله. فحتىٰ هنا ستكون اللاأدرية هي الموقف الراجح لا الإلحاد.

غاري جتنغ:

إذاً ماهي الأسس الأخرىٰ للإيمان بالله، الأسباب التي تجعل الإلحاد غير مبرر؟

---

(١) يشير إلىٰ الخرافة التي تربط بين اكتمال القمر ووقوع الجنون لبعض الناس.

ألفن بلانتنجا:

لعل الأساس الأهم للإيمان بالله ليس الحجج الفلسفية وإنما التجربة الدينية. كثير من الناس من ثقافات متنوعة متعددة وجدوا من أنفسهم تجربةً تربطهم بكائن مستحق للعبادة. إنهم يعتقدون وجود إله بهذه الصفة، ولكن ليس بسبب البراعة التفسيرية لذلك الاعتقاد. ربما هناك شيء بالفعل يماثل مفهوم الفطرة الذي نادىٰ به كالفن. فعلاً، إن كان الموقف الألوهي حقاً، فمن المرجح جداً وجود شيء يشبه مفهوم الفطرة المذكور. فالزعم بأن الأساس المعقول الوحيد للإيمان بالله هو الكفاءة التفسيرية لذلك المعتقد يكافيء بشكل جوهري إقرار فرضية الإلحاد[1].

غاري جتنغ:

إذاً، مادام أنه ليس هناك من حجج تدعم الإلحاد، فلم في ظنك

---

(١) في هذه الدعوىٰ مبالغة ظاهرة، إن لم نقل باطلة. كذلك تقليله من القوة التفسيرية للإيمان بالله هو أيضاً محل نظر، فالله هو أقوىٰ وأقصىٰ وأسمىٰ قوة تفسيرية يمكن للعقل البشري أن يصل إليها أو يفترضها. يقول جيروم كارل Jerome Karle، الحائز علىٰ نوبل في الكيمياء، معبراً عن هذا المعنىٰ: «مفهوم الإله هو خلاصة أسمىٰ خبرة يمكن أن يتصورها الإنسان في وجوده». أما يوجين وجنر Eugene Wigner، الحائز علىٰ نوبل مشاركةً، فيذهب إلىٰ أبعد من هذا ويؤمن أن: «مفهوم الإله... يساعدنا في اتخاذ قراراتنا في الاتجاه الصحيح»، ثم قال: «أخشىٰ أننا كنا سنكون مختلفين عما نحن عليه الآن لو لم نملك ذلك المفهوم». ومن أجل تعميق فهمنا لهذه الجزئية، ألحقتُ بهذه الترجمة فقرةً مقتبسةً بطولها من كتابي (ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان).

الكثير من الفلاسفة - حيث يفترض بهم أنهم أناس عقلاء جداً - ملاحدة؟

الفن بلانتنجا:

لستُ عالم نفس، وبالتالي لا أملك علماً مميزاً هنا. ومع ذلك، هناك بعض التفسيرات المحتملة. توماس ناجل Thomas Nagel فيلسوف رائع وملحد ذو بصيرة غير عادية، صرّح أنه ببساطة لا يود أن يوجد هناك كائنٌ ذو صفات كالله. وليس من الصعب معرفة السبب. الأمر الأول، سيكون هناك ما يعتبره البعض انتهاكاً لا يُطاق للخصوصية: سيعلم الرب كل فكرة من أفكاري قبل أن أفكر بها. والأمر الآخر، ستصبح أفعالي، بل حتىٰ أفكاري، موضوعاً ثابتاً للحكم والتقييم.

إن مرد هذه الأمور بشكل أساسي إلىٰ التقييد الذي يطال الاستقلال الإنساني بسبب المعتقد الألوهي. يمكن للرغبة في الاستقلال أن تبلغ مبلغاً بعيداً جداً[1]، كما في حالة الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر الذي - كما حكىٰ ريتشارد رورتي - شعر بالذنب من جراء عيشه في كون لم يخلقه بنفسه[2]. بين أيدينا الآن ضمير

---

(١) انظر في عامل الاستقلال الإنساني وتداعياته الإلحادية ص٥١-٧٣ من كتابي (ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان)، دار نماء.

(٢) في معنىٰ الاستغناء قال الحق تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ (العلق: ٦ - ٧)، وفي معنىٰ انتحال دور الإله قال سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾=

ليّن!»[1] ومع ذلك يمكن لرغبة في الاستقلال أدنىٰ من هذا بكثير أن تحفّز الإلحاد.

غاري جتنغ:

يبدو أن المادية دافع رئيسي، خاصة في أوساط ملاحدة اليوم. فهم يعتقدون ألا وجود لشيء وراء الكينونات المادية يمكن أن يتيح نفسه للبحث العلمي، وبالتالي لا مكان لكائنات لامادية، كالله مثلاً.

ألفن بلانتنجا:

حسنًا، لو لم يكن هناك إلا كينونات مادية فقط، فإن الإلحاد يلزم بكل تأكيد. ولكن تواجه المادية معضلة في غاية الخطورة: ألا وهي أنه لا يمكن تصديقها علىٰ نحو معقول، علىٰ الأقل إذا كنت، كحال معظم الماديين، ممن يعتقد أن بني الإنسان نتاج التطور.

غاري جتنغ:

ولِم ذلك؟

ألفن بلانتنجا:

لا أستطيع أن أقرر الحجة هنا تقريراً كاملاً – انظر في هذا الفصل العاشر من كتاب «أين يكمُن التعارض حقاً؟»، ولكن بشكل تقريبي،

=(الفرقان: ٤٣).

(١) الضمير الليّن أو الرقيق Tender conscience في أدبيات اللاهوت الكاثوليكي مرتبة من مراتب التقوىٰ والمراقبة يكون فيها الوعي حساساً حساسيةً مرهفة تجاه أي مخالفة أو تقصير ديني.

سأشرح لماذا. أولاً، إن كان المذهب المادي صحيحاً، فإن البشر، وبشكل طبيعي، عبارة عن أشياء مادية. والآن، من وجهة النظر هذه، ما الذي سيعنيه الاعتقاد؟ اعتقادي أن مارسيل براوست أحذق من لويس لامور، مثلاً؟ علىٰ سبيل الافتراض، سيكون هذا الاعتقاد كياناً مادياً في العقل، لنقُل مثلاً تجمعاً للخلايا العصبية يُرسل نبضات كهربائية لكيانات مماثلة بالإضافة للأعصاب والعضلات ويستقبل نبضات كهربائية من كيانات أخرىٰ. ولكن إضافة للخصائص العصبية الفسيولوجية تلك، يتعين أن يكون لهذا الكيان - إذا ما كان اعتقاداً - محتوىٰ ما: لنقل اعتقاد أن براوست أحذق من لامور.

غاري جتنغ:

إذاً أنت تقترح أنه لا يمكن أن يكون الاعتقاد هو هذا الكيان العصبي الفسيولوجي؟ أن الاعتقاد يجب أن يكون لا مادياً بطريقة ما؟

ألفن بلانتنجا:

قد يكون ذلك كذلك، ولكن ليست هذه نقطتي هنا. أنا مهتم بكون الاعتقادات مُسَبِبَةٌ (ولو بشكل جزئي) للأفعال. مثلاً يمكن لاعتقادي بوجود مشروب كحولي في الثلاجة (مع رغبتي في تناول ذلك المشروب) أن يتسبب في نهوضي من أريكتي المريحة والمشي بتثاقل نحو الثلاجة. ولكن هنا النقطة المهمة: لقد تسبب الاعتقاد في وقوع الفعل بفضل خصائصه المادية العصبية الفسيولوجية. إنه بفضل

الإشارات الكهربائية التي أرسلت عبر أعصاب مختلفة إلىٰ العضلات المعنيَّـة أنْ تـسبَّبَ الاعتقـاد بـأن المـشروب بالثلاجـة في ذهـابي إلـىٰ الثلاجـة. إنـه لـيس بفـضل المحتـوىٰ الخـاص بالاعتقـاد (أن هنـاك مشروباً كحولياً في الثلاجة).

غاري جتنغ:

لِم تقول ذلك؟

ألفن بلانتنجا:

لأنـه لـو كـان لهـذا الاعتقـاد – هـذا الكيـان – محتـوىٰ مختلـف بالكلية (حتىٰ لو قلنا بأنه الاعتقـاد بأنـه لا يوجـد مـشروب في الثلاجـة) ولكـن بـنفس الخـصائص العـصبية الفـسيولوجية، لتـسبب أيـضاً في حصول نفس ذهابي إلىٰ الثلاجة. هذا يعني أن محتوىٰ المعتقـد لـيس سبباً للسلوك[1]. إذا تعلق الأمر بكل ما من شأنه أن يتسبب في السلوك، فإن مضمون الاعتقاد لا يهم.

غاري جتنغ:

حقـاً، يبـدو هـذا استنتاجا صـعبا يتعـذر قبولـه. ولكـن ألا يمكـن

---

(١) حجة بلانتنجا جيدة إجمالاً كما سيأتي. ولكنه قد ينازع في هذا الموضع. لأن المحتوىٰ معنىٰ، والأصل أن المعنىٰ محرّك للسلوك. يتعين علىٰ بلانتنجا تقديم دليل استثنائي راجح ينهض لجعل هذا الأصل مرجوحاً. يحتاج بلانتنجا إلىٰ البحث عن مسلك آخر لتتميم فائدة هذه الحجة واستكمال وجاهتها المنطقية. وسيأتي قول بلانتنجا: «سينتخب التطور عمليات من شأنها أن تنتج معتقدات ذوات خصائص عصبية فسيولوجية تكيفية...» الخ، وهو المهم.

للتطور أن يُخرِج المادي من هذا المأزق؟ لكي يتمكن نوعنا من البقاء، يُفترض أن أكثرَ - إن لم نقل جميع - معتقداتنا قد كانت صحيحة بالضرورة، وإلا لما تصرفنا كما ينبغي في عالم محفوف بالمخاطر.

ألفن بلانتنجا:

سيكون قد آل بنا التطور إلىٰ اكتساب معتقدات تكيفيّة، أي معتقدات تتسبب في أفعال متكيفة. ولكن كما رأينا، إذا كان المذهب المادي صحيحًا، فإن المعتقد لا يتسبب في الفعل التكيفي من طريق محتواه، وإنما سيتسبب في الفعل التكيفي من جهة خصائصه العصبية الفسيولوجية، وبالتالي محتوىٰ الاعتقاد لا يهم، وكذلك لن يهم ما إذا كان ذلك المحتوىٰ حقًا أم باطلاً في نفسه. كل ما يهم هو ما إذا كان الاعتقاد قد قامت به الخصائص العصبية الفسيولوجية المناسبة. فإن كان حقًا، فهذا حسن، وإن كان باطلاً، فهو أيضًا حسن[1].

سينتخب التطور عمليات من شأنها أن تنتج معتقدات ذوات خصائص عصبية فسيولوجية تكيفية، ولن ينتخب عمليات من شأنها

---

(١) حسنٌ في الحالتين لأنه يكون قد حقق وظيفته التكيفية في الحالتين، من غير ضرورة تقتضي الوعي بقيمة المحتوىٰ من جهة الصحة والبطلان. ولإثراء هذه الجزئية وزيادةً في توضيحها ألحقتُ بهذه الترجمة فقرةً مقتبسةً من (ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان) تشرح قصور المذهب الطبيعي في ضوء حجة بلانتنجا هذه.

أن تنتج معتقدات صحيحة. ففي ضوء المادية والتطور، سوف يستوي رجحان أي معتقد من جهة الصحة والبطلان.

غاري جتنغ:

إذاً أنت تقول أنه إذا كانت المادية صحيحة، فإن التطور لا يؤدي إلىٰ كون معظم معتقداتنا صحيحة.

ألفن بلانتنجا:

هذا حق. في الواقع، فإنه بتبني التطور والمادية، فإن ما يلزم هو أن مَلكاتنا المسؤولة عن إنشاء المعتقدات تغدو غير موثوقة[1]. وسأشرح لماذا. حين يستوي رجحان أي معتقد من جهة الصحة والبطلان، سيتوجب علينا عندئذ أن نقول أن نسبة احتمال صحة أي معتقد هي ٥٠٪. والآن افترض أن لدينا ما مجموعه ١٠٠ معتقد مستقل (بطبيعة الحال لدينا أكثر من هذا بكثير). تذكَّر أن احتمال صحة كل واحد من المعتقدات في مجموعةٍ ما هو حاصل ضرب الاحتمالات المفردة لجميعها. حتىٰ لو وضعنا سقفاً متدنياً بعض الشيء للموثوقية – لنقل أن الثلثين (٦٧٪) علىٰ الأقل من معتقداتنا صحيح – فإن إجمالي موثوقية معتقداتنا حين تبنّي المادية والتطور،

(١) جديرٌ بالذكر أن دارون نفسه أبدىٰ قلقاً صريحاً تجاه هذا الإشكال تحديداً، إذ قال: «ينتابني دوماً شكٌ فظيع حول ما إذا كانت قناعات عقل الإنسان، والذي بدوره تطور من عقول كائنات أدنىٰ، تتمتع بأي قيمة أو تستحق أدنىٰ ثقة».

انظر: Charles Darwin to W. Graham, July 3, 1881, *In* **Darwin, F.; edit. (1911) The Life and Letters of Charles Darwin**, Vol. 1, London, p. 285

متـدنٍ للغايـة: قريـبٌ مـن (٠.٠٠٠٤). وبالتـالي إن قبلـت بالماديـة والتطـور معـاً، فـسيكون لـديك سـبب وجيـه للإيمـان بـأن مَلكاتـك المسؤولة عن إنشاء المعتقدات غير موثوقة.

ولكـن الإيمـان بـذلك يعنـي الـسقوط في شـكٍّ تـام، الأمـر الـذي يتركـك بـدون أي سـبب لقبـول أي مـن معتقـداتك (بمـا في ذلـك معتقـداتك عـن الماديـة والتطـور!). الـسبيل المعقـول والوحيـد هـو التخلّي عن الدعوىٰ المفضية لهذه النتيجة: دعوىٰ أن المادية والتطـور صحيحان معـًا. ربما يجوز لك أن تتبنىٰ أحد طرفي هـذه الـدعوىٰ دون الآخر، ولكن ليس كليهما.

فـإن كنـت ملحـداً لأنـك ببـساطة تقبـل بالماديـة، فـإن اسـتقامة إلحادك تعني أنه يتعيّن عليك التنازل عـن اعتقـاد أن التطـور صـحيح. بتعبير آخر: الاعتقاد بأن المادية والتطور كليهما صـحيحان هـو اعتقـاد يعـود علىٰ نفسه بالإبطـال. إنـه يجنـي علىٰ نفـسه، وبالتـالي لا يمكـن القبول به عقلاً.



مُلحق (١):

برهانٌ مختصر يـأتي علـى الإلحـاد الإيجـابي Positive Atheism من أصله[1].

لا يمكن لإنسان أيًا كان في قضية وجود الخالق أن يحكم علىٰ الخالق بحكم إلا وقد سبق ذلك الحكم تصور معيّن عن الخالق الذي يريد الحكم عليه. حتىٰ الملحد الجَلد لا يمكنه إنكار الصانع إلا وحكمه فرع عن تصور معين لخالق يأباه ولا يوافق عليه، إذ يستحيل أن يخوض الْمُلحد في قضية ممتنعة لذاتها أو قضت ضرورة العقل بانتفائها، فهذا عبث وسفه؛ مثال ذلك: أنك لا تجد عاقلًا يخوض بنظره ويجول بفكره للبرهنة علىٰ إمكان اجتماع النقيضين -كاجتماع الوجود والعدم- لأن علم ذلك (أي: علم استحالة اجتماعهما) ضروري مركوز في النفس ومجرد محاولة تجويز ذلك سفه يتنزه عنه أعتىٰ الملاحدة.

وهكذا الخالق فإنه ليس شيئًا ممتنعًا لذاته، ولا يحكم العقل

---

(١) ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان، دار نماء، ص (٢٤٦).

بضرورة انتفاء وجوده، لأنه لو كان كذلك لكان إثبات امتناع وجوده أسهل من إثبات وجوده، بل ستنتفي الحاجة لتجشم إثبات امتناع وجوده لأن الضرورات - أي: في حالة حكم العقل بضرورة انتفاء وجوده - لا تفتقر إلىٰ نظر؛ وعليه فوجود الخالق ممكن في أقل الأحوال تنزلًا مع الخصم في التعبير؛ والممكن لا يُمكن الحكم عليه بنفي أو إثبات إلا بدليل، فوجب علىٰ من ينكر وجود الخالق التدليل علىٰ دعواه، مثلما يطلب هو من المثبتين لوجوده تقديم أدلتهم علىٰ وجوده.

عندما نبلغ هذه المرحلة - أي: مرحلة الكلام في نفي أو إثبات الممكنات - تلعب التصورات الشخصية والميول النفسية دورًا بالغ التأثير، وبإمكاننا أن نقول: إن أصل إنكار الملاحدة عائد إلىٰ تصور معين، لا إلىٰ أن عدم وجود الخالق هو ضرورة فطرية أو أن النظر في الأدلة لا يقضي إلا بذلك، فهم لا يقولون بذلك ولا يجرؤون، ولكن الدهاة منهم يحاولون بالتمويه - كما يفعل السوفسطائية - أن يصوروا لعامة الناس أن الأمر كذلك، وهذا ليس بشيء. فافهم هذا التأصيل وتأمله جيدًا يزُل عنك - بإذن الله - أصل الإشكال أو أكثره[1].

***

(١) لم يعزب عن ذهني تفاوت مواقف الملاحدة باختلاف الإله الذي يتحدثون عنه. ألا ترىٰ إلىٰ رد دوكنز علىٰ سؤال بن شتاين في الوثائقي الشهير Expelled عندما سأله: أتؤمن بوجود إله التوراة؟ فأجاب: سيكون ذلك احتمالًا مزعجًا.

مُلحق (٢):

الإيمان بالخالق.. أشمل وأمثل قوة تفسيرية بالنسبة للخبرة البشرية[١].

أبدأ بتقرير أنه مهما أمعن الفكر في التماس أصل تفسيري مادي نهائي، فسنجد أنه لا يمكن إلا أن ينتهي إلىٰ منتهىٰ كل تفسير وأصل كل أصل، ألا وهو الله ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ (النجم: ٤٢)، ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (الشورىٰ ٥٣)، فإنه بعبارة ابن تيمية «مؤصِّل كل أصل، ومسبب كل سبب وعلة، هو الدليل والبرهان والأول والأصل الذي يستدل به العبد»[٢] ومن ثم كل «الأشياء إذا تخلَّىٰ عنها الله فهي باطل يكفي في عدمها وبطلانها نفس تخلّيه عنها»[٣]. ولكنا فيما يأتي، تنزلاً علىٰ سبيل الجدل، سوف نبدأ من مستوىٰ الافتراض لنزيد الجواب تقريراً.

---

(١) ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان، دار نماء، (١٢٥- ١٢٩)؛ بتصرّف يسير.

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢/ ١٩).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٢/ ٤٢٥).

لـو فرضـنا أن الخـالق جـل شـأنه فرضـية (hypothesis)، فإننـا سـنجد أنهـا أفـضل وأمثـل فرضـية ممكنـة بالنـسبة «للعقـل» بجميـع ممارساته ومكوناته: تفكير واعتبار، وجدان وعواطف، منطق وأفكار؛ لذا كان خطاب الخالق -أي وحيه- صديقًا للخبرة البشرية، ومألوفًا لهـا، أو كمـا يمكـن أن يقـال في الإنجليزيـة: Experience-friendly.

سيقول الملحد: لا ننكر أن فرضية الخـالق فرضـية مريحـة جـدًا لكثير من الأمم في القديم والحديث، ولكـن محـل نزاعنـا معكـم هـو في هـذه النقطة، فما الذي يمنع أن يكون العقل هو من اخترع فرضـية الخـالق؟

والجـواب: نحـن لـم نجعـل الله[1] فرضـية إلا مـن أجـل سـؤالكم هـذا! فرضنا أن فرضكم هذا صحيح، فوجـدنا أنـه مـا زال بإمكاننـا أن نقـول - بقطـع النظـر عـن الـوحي-: إن فرضـية الخـالق تبقـىٰ أفـضل فرضـية اخترعها العقل للإجابة عن الأسئلة النابعـة مـن حاجـات العقـل الـذي هو: فكر وبصر وعاطفة ووجدان وحدس وغريزة ونظـام متـصل بكـل ذرة في الإنسان، كما قررناه آنفًا.

هـذا التـصرف في الجملـة متـسق مـع التفكيـر العلمـي، إذ مـا زال العلمـاء يهرعـون إلـىٰ افـتراض أفـضل الفرضـيات الممكنـة بالنـسبة لنـا، ولـيس بالنـسبة لـشيء آخـر، وإن افتقـرت الآن لمـا يثبتهـا. وللملحـد أن يقـول: نعـم، ولكـن الفـرق بيننـا وبيـنكم أننـا نعتمـد في افتراضـنا علـىٰ

---

(١) الخالق في هذا السياق هو الخالق كما جاء وصفه في الإسلام.

معطيات وقرائن حسية حاضرة علىٰ الأقل، أما أنتم فبناءً علىٰ ماذا يكون افتراض وجود الخالق معقولًا ومقبولا؟ الجواب: سوف نسلّم لكم جدلًا مشروعية هذا السؤال وإن كان ينطوي علىٰ مفارقة، وننتقل بكم إلىٰ ما يجعل فرضية وجود الخالق أمرًا معقولًا ومقبولًا، ألا وهو: حاجتنا للجواب عن سؤال: لماذا؟ لماذا هذا الكون وليس غيره؟ لماذا أنا الواعي الْمُدرِك العاقل بدلًا من غير ذلك؟ لماذا أنا المتسائل المتطلع المتشوف لما وراء الزمان والمكان وليس غير ذلك؟ لماذا أنا الأخلاقي بدلًا من اللاأخلاقي، والإنساني بدلًا من اللاإنساني؟ فكل هذه الأسئلة لا ننكر أن الملحد قادرٌ علىٰ إسكاتها بالافتراض الذي يريد، ولكن تبقىٰ فرضية الخالق الأفضل علىٰ كافة المستويات النفسية والوجودية معًا[1].

فإن قال الملحد: سوف أسلّم لك أن فرضية الخالق صحيحة بهذا الاعتبار، ولكنها من وجه آخر تحجز الإنسان عن البحث وتغلق عليه طريق المعرفة. الجواب: هذا اعتراضٌ عملي (براجماتي) محض، وهو اعتراض ينتمي إلىٰ جنس من الاعتراضات أنتم من أشد الناس عداوة له ومخاصمة للقائلين به. أليس احتجاجنا بكون فرضية الخالق أو الإله

(١) لذلك لما سبر إدموند هوسرل، المؤسس الرسمي للظاهراتية Phenomenology، جوهر الخبرة الدينية وجد أنها قائمة علىٰ علاقة عضوية بين الغائية Teleology والإيمان Faith، وأن الدين ينشأ من حاجة إلىٰ فهم الوجود ككل، وهي حاجة تنطوي بالضرورة علىٰ مطالب تقع خارج نطاق مهمة العلم الطبيعي.

DupréS, L. (1968) Husserl's Thought on God and Faith. Philosophy and Phenomenological Research, Vol. 29, No. 2, p. 201-215.

(God hypothesis) أفضل وأمثل فرضٍ لقطع دابر الحيرة احتجاجًا براجماتيًّا بامتياز؟! فلماذا تنقمون منا ما لا تنقمون من أنفسكم؟ إنكم لا تعون جيدًا من أين نأتي في حجتنا. نحن نقول لكم: إن التصور الصحيح للعقل لا يجعل فرضية الإله فكرة مشروعة فحسب، فهذا شأن الفكر لو كان العقل مجرّد فكر، ولكنه يجعلها حاجة ملحّة لأن العقل ليس مجرد فكر؛ وإذا أردنا أن نعبّر بشكل أدق عما يجري لقلنا: العقل هنا لا يبتدع فرضية وإنما يعبّر في واقع الأمر عن حاجة؛ فحتىٰ العقل بالتصور الديكارتي المغلوط للعقل - حيث العقل يكاد يكون مبتوت الصلة بحاجاتنا البيونفسية *Biopsychological* العميقة - يجعل وجود الخالق ضرورة[1]، فكيف مع التصور الصحيح له؟! ألا ترىٰ إلىٰ ما ذكره جيمس لويبا James Leuba، المتخصص في دراسة الأصول النفسية والأنثروبولوجية للأديان، حين قال:

«تنتاب الدهشة كثيرًا من الناس وهم يشاهدون استيلاء سؤال الخلق علىٰ خواطر الأطفال. يشاهد الطفل حجرًا قد تشكّل علىٰ نحو غريب، ثم يسأل: مَن صنعه؟ فيأتي الجواب: لقد تشكل بفعل انسياب تيار الماء. ولكنه، وعلىٰ نحو مفاجئ، لا يلبث أن يقذف بسلسلة من

---

(١) النسبة لديكارت: «الله كامل مطلق الكمال، منزه عن كل نقص أو خداع، وهو الذي وضع العقل فينا، فهو الضامن لصحة التفكير متىٰ كان موضوع التفكير واضحًا متميزًا». (قضايا معاصرة في ضوء الإسلام، ص (١٧٩)، د. حلمي عبد المنعم؛ نقلًا عن: أسس الفلسفة، د. توفيق الطويل).

الأسئلة المتعاقبة، معبرة عن ذهوله بقدر تعبيرها عن تساؤله: من صنع النهر؟ من صنع الجبل؟ من صنع الأرض؟ فمن دون شك، ضرورة الصانع Maker مغروزة في الإنسان البدائي منذ وقت مبكر»[1].

وإنكم لتشغبون علىٰ الناس بعبارة فولتير: «لو لم يوجد الإله لكان من الضروري اختراعه»، فيصيب كثيرًا منهم الذعر، ولا ينبغي لكم ولا لهم ذلك؛ لسببين: أن فولتير لم يكن ملحدًا، ولم يُرد بها إلحادًا، ولكنكم تسوقونها لغرض معروف[2]. والسبب الثاني: أنها من أبلغ ما قيل في التعبير عن داعي الفطرة، فالاختراع دليل الحاجة - أليس يُقال: الحاجة أُم الاختراع؟!- وآية من داخلنا قبل خارجنا علىٰ عناية الخالق؛ إذ لولا تلك الحاجة لكان طريق الوصول إليه والتعرف عليه بالمنطق وحده، أو الفكر وحده، بل بالعقل وفق التصور المغلوط للعقل، في غاية العُسر والوعورة. وهذا العالم التطوري جستن باريت Justin Barrett، المتخصص في دراسة الأديان من منظور علم النفس المعرفي، يقول: «فيما يتعلق بقدرة الله المبدعة، يبدو أن أطفال سن ما قبل المدرسة قادرون علىٰ إدراك أن الله خالق الأشياء الطبيعية لا الأشياء المصنوعة، وأن الإنسان يخلق[3] الأشياء المصنوعة لا الأشياء

(1) Leuba, James H. (1909) The Psychological Origin and the Nature of Religion. Bryn Mawr College, USA, p. 41.

(٢) أصل عبارة فولتير من بيت في قصيدة له انتقد فيها ممارسات المؤسسة الدينية.

(٣) أثبت القرآن فعل الخلق للإنسان ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ (العنكبوت: ١٧) وحقيقة الصفة بحسب من/ ما تضاف إليه.

الطبيعية»[1]. فما مغزىٰ هذا الاستعداد للتمييز بين ما هو «مخترع» وما هو «مخلوق»، إن كان الخالق ليس أكثر من «فرضية مخترعة» بالفعل؟

أليس في ذلك الوعي المبكر أبلغ مصادقة علىٰ فطرية التفريق الرباني:

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (لقمان: ١١)؟!

* * *

---

(1) Barrett, J. L. (2000) Exploring the Natural Foundations of Religion, Trends in Cognitive Sciences - (Jan.) , Vol. 4, No. 1, p. 30.

مُلحق (٣):

حجة بلانتنجا وقصور المذهب الطبيعي Naturalism[1].

طوّر الفيلسوف ألفن بلانتنجا Alvin Plantinga برهانًا أرغم الفلاسفة الداروينيين علىٰ إعادة النظر في أصل خريطتهم المعرفية؛ فحواه: إذا كان العقل قد طورته الطبيعة لتحقيق غاية بقاء النوع كما تفترض الداروينية في صورتها المعيارية، فإن هذا يعني أن أحكام العقل الأخرىٰ إما ثانوية أو لا وزن لها، مثل حكم كون الفكرة «حقًا» من عدمها[2]. فالتطور أصم أبكم أعمىٰ غير آبه بالقيمة المعنوية لهذه الأحكام، مما يلزم عنه ألّا مُستمسَك لأحد في ثقته بأحكامه العقلية لأنها - كما تخوف من ذلك دارون نفسه- نتاج عقل متغير بتغير متطلبات استدامة النوع.

لكننا نجد اعتداد الناس بثقتهم في ملاحظة قيمة «الحق» سلوكًا حاضرًا بقوة. بعبارة أخرىٰ: يتملّكهم، ملحدين ومؤمنين علىٰ حد

---

(١) ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان، دار نماء، ص (١٩١).

(٢) بمعنىٰ أن تحقيق غاية البقاء ممكن من دون الحاجة إلىٰ الوعي بكون هذه الفكرة أو تلك «حق» أو «باطل».

سواء، شعور اضطراري بأنه يتوجب عليهم أن يثقوا في قيمة أحكامهم ولا يتأتىٰ لهم ذلك إلا بالثقة في تميز موقعهم الإدراكي من أصله. يقول الناقد الإيرلندي كليف لويس C. S. Lewis: «لا يمكن لاقتناعنا بأن الطبيعة تعكس نظامًا، أن يكون أهلًا لثقتنا إلا إذا اعتبرنا نوعًا خاصًا من الميتافيزيقيا صحيحًا. إذا كان أعمق شيء في الواقع، الحق الأساس[1] الذي هو مصدر كل حق نؤمن به، هو بدرجة ما شبيه بنا - أي: إذا كان نفسًا عاقلة[2] صدرت عنها أنفسنا العاقلة- ففي هذه الحالة يمكننا بالفعل أن نثق فيها. إن مقتنا الشديد للفوضىٰ مأخوذ من خالق الطبيعة ومن أنفسنا»[3].



---

(١) يمكن رصد إيمان الملاحدة بإمكان وجود نوع من الحق كهذا من خلال تجويزهم لإمكان الوصول إلىٰ نظرية موحدة من شأنها أن تفسر كل شيء: «نظرية كل شيء» Theory of Everything.

(٢) يريد الله تعالىٰ، وإن كان لنا ألا نتفق معه في التعبير. ولكنه يشير إلىٰ قريب من منطوق حديث «خلق الله آدم علىٰ صورته»، أو ما يمكن أن يُفهم من قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة: ٩)؛ قال الإمام الطبري ﵀: «ثم سوىٰ الإنسان الذي بدأ خلقه من طين خلقاً سوياً معتدلا (ونفخ فيه من روحه) فصار حيًا ناطقًا». تفسير الطبري (٢٠/ ١٧٣).

(٣) يُنظر في تحليل حجة بلانتنجا - المصدر:

Nathan, N. M. L. (1997) Naturalism and Self-Defeat: Plantinga's Version. Religious Studies, Vol. 33, No. 2, p. 135-142 .

كذلك:

Peressini, A. (1998) Naturalism, Evolution, and Self-Defeat. *International Journal for Philosophy of Religion*, Vol. 44, No. 1, pp. 41-51.